الجامعـــــــة الإســـلاميـة – غـزة
شئون البحث العلمي والدراسات العليا
كـليـــــــــــــــــــة الآداب
ماجـستيـــــــر اللغـــة العربيـــة

The Islamic University–Gaza
Research and Postgraduate Affairs
Faculty of Arts
Master of Arabic Language

خُطَبُ الحَجَّاجِ بن يُوسُف الثَّقَفِيّ
دِرَاسَةٌ أُسْلُوبِيّة

AL-hajaj Bin Yousf AL-thaqafy speeches: Stylistic Study

إِعدَادُ البَاحِثِ

عبدالله ماهر أحمد السوسي

إِشرَافُ

الأستاذ الدُكتُور

وليد محمود أبو ندى

قُدمَ هَذا البحثُ اِستِكمَالاً لِمُتَطلباتِ الحُصولِ عَلى دَرَجَةِ الْمَاجِستِيرِ
فِي اللغة العربية بِكُليةِ الآداب فِي الْجَامِعَةِ الإِسلامِيةِ بِغَزة

يناير/2017م – ربيع الثاني/1438هـ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إقـــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

دراسة أسلوبية

AL-hajaj Bin Yousf AL-thaqafy speeches: Stylistic Study

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	عبدالله ماهر أحمد السوسي	اسم الطالب:
Signature:	SA	التوقيع:
Date:	2017/3/5	التاريخ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية غزة
The Islamic University of Gaza

مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا هاتف داخلي 1150

الرقم: ج س غ/35/ Ref:

التاريخ: 2017/02/14م Date:

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **عبدالله ماهر أحمد السوسي** لنيل درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/ قسم اللغة العربية**، وموضوعها:

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي
دراسة أسلوبية

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الثلاثاء 17 جمادى الأولى 1438هـ، الموافق 2017/02/14م الساعة الحادية عشر في قاعة مؤتمرات مبنى القدس ، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. وليد محمود أبو ندى	مشرفاً و رئيساً	.....
أ.د. كمال أحمد غنيم	مناقشاً داخلياً	.....
د. علي يوسف اليعقوبي	مناقشاً خارجياً	.....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/**قسم **اللغة العربية**.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

نائب الرئيس لشئون البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. عبدالرؤوف علي المناعمة

الملخص

تناولت الرسالة خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي دراسةً أسلوبية، ووقفت على أسرار الصياغة اللغوية والتركيبية والدلالية والبيانية عنده، كما كشفت الدراسة علاقة الأسلوب بالسياق والغرض والمتكلم والمتلقي.

تجلّى هذا عبر دراسة لأخبار الحجّاج بن يوسف وأحوال العراق في ظل دولة بني أميّة، ثمّ وقفت الدراسة عند فن الخطابة عند العرب في الجاهلية والإسلام، ومنزلة الخطابة وبنائها عندهم، والموروث النقدي الذي دار في كتب النقاد والبلاغيين المتقدمين حول فن الخطابة.

وتناولت الدراسة أسلوبية الدوال عند الحجّاج، والأسلوبية الصرفية والانزياح الدلالي لبناء الخطبة، كما تناولت الدراسة الأسلوبية التركيبية والدلالية، وذلك من خلال دراسة معجم الحجّاج الذي تشكلت منه الخطب، وتصنيفها إلى حقول دلالية حسب السياق الذي ترد فيه المفردة، وتناولت الدراسة أسلوبية النداء والأمر والنهي والاستفهام في الخطب، ومهارة الحجّاج في استثمار الأساليب البلاغية للتأثير والإقناع.

وكشفت الدراسة عن أسرار الأسلوبية البلاغية عند الحجّاج، واقتداره على توظيف أساليب التشبيه والمجاز لمدح أهل الشام وبني أميّة، وتقريع المخالفين للدولة الأموية، من خلال ما يحمله التشبيه من تجسيم للمعاني، حتى تكون قريبة للأذهان، وكذلك ما يحمله المجاز من صور مكثفة حملت ألوانًا من صنوف التهديد والتقريع للعراقيين، ومثّل أسلوبا التشبيه والمجاز أداةً مهمة من أدوات الإقناع والتأثير في خطب الحجّاج بن يوسف.

وذيّلت الدراسة بجملة من النتائج والتوصيات التي توصل إليها الباحث من خلال دراسته المستفيضة لأسلوب الحجّاج بن يوسف في خطبه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Abstract

This thesis offers a stylistic study that is concerned with the speeches of Al-Hajjaj ibn Yusuf Al-Thaqafi. The study tackles his style in terms of the linguistic, structural, synthetic, indicative, and expressive values. The study also revealed the relationship between style and context, purpose, the speaker, and the receiver.

This is manifested through the study of the stories of Al-Hajjaj bin Yusuf and the conditions of Iraq under the Umayyad state ruling. The study then highlighted the art of public speaking among the Arabs in the ignorance era and after the emergence of Islam, the status and structure of public speaking in this regard, and the critical literature mentioned in the books of early critiques and scholars of eloquence about the art of public speaking.

The study discussed the stylistic values of signifiers used by Al-Hajjaj, the stylistic values of word structure, and the indicative displacement of the speech structure. The study also discussed the synthetic and indicative stylistic values through the study of Al-Hajjaj terminology which formed his speeches and helped classifying them into indicative fields depending on their context. The study also tackled the styles of nidaa' (calling), amr (order), nahy (prohibition), and istifhaam (questioning) in speeches, in addition to the skills of Al-Hajjaj in the investment of the eloquence styles in convincing and delivering influential speeches.

The study revealed the secrets of Al-Hajjaj's stylistic expressive values, and his ability to employ the methods of tashbeeh (similitude) and majaaz (figuration) to praise the people of Shaam and the Umayyad, and to reproof the opponents of the Umayyad state through the depicted indicative and clear meanings in his similitudes, and through the threatening expressed in his figurations and directed to the people of Iraq. The styles of similitude and figuration formed an important tool of persuasion used in the speeches of Al-Hajjaj ibn Yusuf.

The study concluded by a set of findings and recommendations reached by the researcher through the extensive study of the style of Al-Hajjaj bin Yusuf observed in his speeches.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

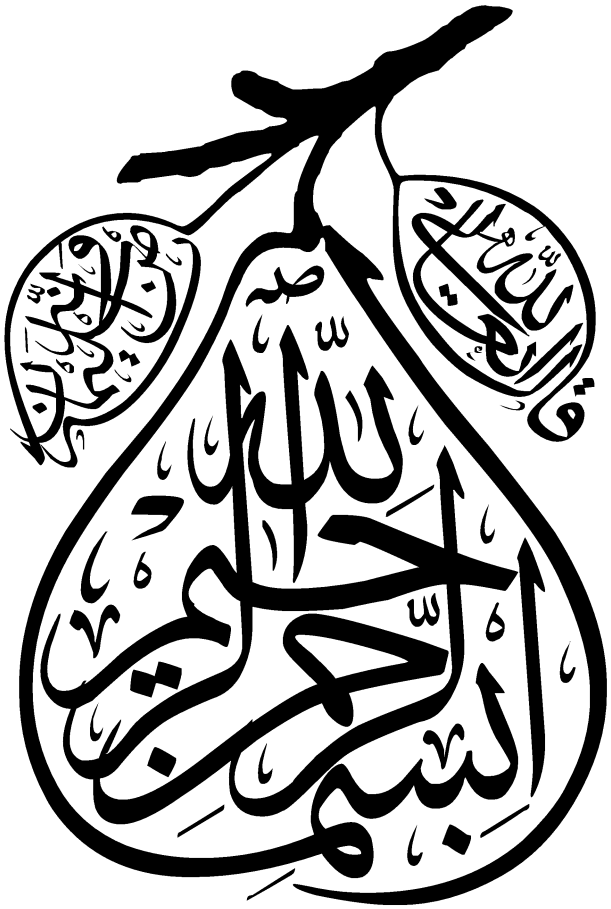

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإهداء

❖ إلى والدي الغالي؛ الأستاذ الدكتور/ **ماهر أحمد السوسي**، القدوة والمثل الأعلى.

❖ إلى والدتي وحبيبة قلبي، التي تفضلت عليّ بعطفها وحنانها.

❖ إلى أشقائي الخمسة، رفقاء الحياة منذ الميلاد.

❖ إلى أقاربي وأصدقائي وزملائي، وكلّ صاحب فضل عليّ، ولكلّ من احتفي بهذه الخطوة العلمية.

❖ إلى فلسطين، أرضها وشعبها وشهدائها.

❖ للمسلمين جميعًا، شاميين وعراقيين وحجازيين...

أسأل الله أنْ يجزيهم عنّي خير الجزاء.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشكر والتقدير

الحمد لله من قبلُ ومن بعد، الذي أتمّ عليّ بلطفه وكرمه هذه الدراسة، فسخّر من عباده أيادٍ حانية تأخذ بيدي لاجتياز هذه المرحلة المهمة في الحياة العلمية، وعقول راقية أعبر معها دنيانا عبر طريق النور والمعرفة.

وأتوجه بخالص الشكر للمشرف على هذه الرسالة الذي أكن له التقدير والاحترام؛ الأستاذ الدكتور/ **وليد محمود أبو ندى**، الذي شرفني قبوله الإشراف على دراستي العلمية، وتكرّم عليّ بساعات كثيرة من وقته؛ مانحًا النصيحة السديدة، والمعلومة القيّمة، والمتابعة المستمرة، وهذا ما عهدته على من كان للندى أبًا.

والشكر موصولٌ لعضوي لجنة المناقشة الفاضليْن:

الأستاذ الدكتور/ كمال أحمد غنيم، والدكتور/ علي يوسف اليعقوبي، اللذين تفضلا بتحكيم هذه الرسالة، وأتحفتني عدالتهما في إثراء مضمونها، وتصويب الخلل الذي اعتراها.

وأتقدم بالشكر الجزيل للجامعة الإسلامية؛ بهيأتيها الأكاديمية، والإدارية، وأخص بالشكر أسرة المكتبة المركزية بالجامعة، على ما يقدمونه من خدمات للمستفيدين.

والشكر الدائم لوالدي العظيم الأستاذ الدكتور/ ماهر أحمد السوسي، الذي قدّم كلّ شيءٍ، ليرى ولده يرتقي سلم الدرجات العلمية، أسأل الله أنْ يرضيه ويرضى عنه، ويقرّ عينيه دائمًا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهرس المحتويات

إقـــرار ..... ب

الملخص ..... ت

Abstract ..... ت

آية من القرآن الكريم ..... ج

الإهداء ..... ث

الشكر والتقدير ..... خ

فهرس المحتويات ..... د

فهرس الجداول: ..... ز

المقدمة 1

التمهيد 5

أولا: أخبار الحجّاج بن يوسف الثَّقَفي 40-95 هـ. 5

ثانيًا: أحوال العراق في ظل الدولة الأموية: 13

الفصل الأول: فن الخطابة 17

المبحث الأول: الخطابة لغةً واصطلاحًا 17

المبحث الثاني: منزلة الخطابة في الجاهلية والإسلام. 20

أولاً: منزلة الخطابة في الجاهلية. 20

ثانيًا: منزلة الخطابة في الإسلام. 25

المبحث الثالث: بناء الخطبة في الموروث النقدي. 27

المقدمة 28

الموضوع 30

الخاتمة 31

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الفصل الثاني: أسلوبية الدوال (المفردات) 34
المبحث الأول: الأسلوبية الصوتية 34
أنواع المقاطع: 41
المبحث الثاني: الأسلوبية الصرفية 59
أولًا: خطب الحجّاج لمّا قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم 59
المبحث الثالث: الانزياح البنائي 67
الفصل الثالث: الأسلوبية التركيبية والدلالية 76
المبحث الأول: الأسلوبية المعجمية (المفردات) 76
حقل الألفاظ الدينية 77
حقل التمرد والمعصية 78
حقل التهديد والوعيد، والتقريع 79
حقل أعضاء الإنسان 81
حقل عالم النبات 79
حقل عالم الحيوان 79
حقل ألفاظ القتال 79
حقل الموت والحساب 80
المبحث الثاني: أسلوبية التراكيب 82
أولًا: النداء 82
ثانيا: الاستفهام 84
ثالثًا: الأمر والنهي. 87
الفصل الرابع: الأسلوبية البلاغية 92
المبحث الأول: أسلوبية التشبيه 92

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني: أسلوبية المجاز 100
المبحث الثالث: الأسلوبية البديعية 112
الطِبَاق والمُقَابَلَة: 112
السَّجْع 121
الخاتمة 124
النتائج 124
المصادر المراجع 127

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهرس الجداول:

جدول (2.1): إحصائية بالمقاطع الصوتية في سورتي الكوثر والإخلاص 39

جدول (2.2): النظام المقطعي لخطبة الحجاز 40

جدول(2.3): أنواع المقاطع وعددها في خطبة الحجاز 44

جدول(2.4): النظام المقطعي لخطبة العراق 50

جدول(2.5): أنواع المقاطع وعددها في خطبة العراق 54

جدول(2.6): مقاطع البيت الشعري في الخطبة 55

جدول (2.7): أفعال الخطبة 62

جدول (4.1): التشبيهات الثنائية في تناص الحجّاج 95

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، جلت أسماؤه، وتباركت صفاته، وأُثني عليه الخير كله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبدالله –عبدالله ورسوله–؛ النبي الهادي الأمين، بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، أما بعد:

تعدُ الخطبةُ إحدى فنون القول النثرية، وبها اعتنى البشرُ قديمًا، وحديثًا، وبها حاجَّ الناسُ بعضهم بعضاً، لاعتماد كلِ ذي حاجةٍ عليها في التأثير والإقناع، أو التأليب والتحفيز؛ لذلك كانت لها شروطها، وأفنانها، وعلومها؛ وهي سرجٌ لا يركبه إلّا مقتدر، وإلّا أطاحت به، وكان الحجّاج بن يوسف الثقفي ممن امتطوا هذا السَّرجَ عن اقتدار، وقد هيّأت سليقته العربية، وفطرته الفصيحة، وشخصيته القيادية لنمطٍ جديدٍ في الخطبة العربية، حقٌ له أن يدرس ويلتفت إليه، ولذا عاجّ الباحث لدراسة خطب الحجّاج دراسة أسلوبية؛ فكان عنوان الرسالة:

"**خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي (دراسة أسلوبية)**"

وقد تحددت نصوص الخطب المتناولة في الدراسة زمنَ الدولة الأموية، وكان شرف المحاولة في إجراء الدراسة في خطب هذا العربي المِصْقَعُ، لتحقق الفصاحة العالية فيها؛ فقد شَهِدَ له الأكابر بفصاحة اللسان، والنجاح في تحصيل ثمار خطبه البليغة؛ وهذا يدفع إلى استخراج مواطن النجاح في أسلوبه، وفق الأسلوبية التي تهتم بالنصوص ذات البعد الأدبي، وما انمازت به عن غيرها من النصوص، وكشف العلاقة القائمة بين اللغة ومستوياتها بشخصية المبدع، والظروف المحيطة به.

وأرجو أن يحقق الكشف عن أساليب الحجّاج في الخطابة، من خلال أسلوبه المتميز إضافة جديدة في المهارات الخطابية، وتشجيعًا للسير على خطاه في العدول عن تقاليد الخطبة، بشرط الفائدة، والتجديد لا العبث.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويعد كتاب (جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة)* ومؤلفه أحمد زكي صفوت –أستاذ اللغة العربية بدار العلوم–، مرجع الباحث في قراءة خطب الحجّاج، ذلك أنَّ مؤلف الكتاب جمع هذه الخطب من مظانها القديمة والمتعددة، ليسبق الدارسين بخطوة البحث في المصادر القديمة، ويسهل عليهم عناء التحقق، وقد سبقت دراسات اعتمد الباحثون فيها على الكتاب المتقدم*.

وأكبر الإشكالات التي واجهت الباحث ندرة الدراسات الأسلوبية التطبيقية، فتوفر هذه الدراسات يساعد الباحث الجديد في استبصار الطريق، وتلمس الخيوط الأولى في تحليل النصوص الأدبية على ذات المنهج، ويعد الأستاذ الدكتور: وليد أبو ندى – المشرف على هذه الرسالة– صاحب فضل في كسر حاجز الإجراء التطبيقي للأسلوبية، حيث أمدني بمفاتيح حل لهذه المشكلة، وهو صاحب التجربة في الدراسات الأسلوبية.

واحتوت هذه الدراسة على تمهيد وأربعة فصول وخاتمة بها النتائج والتوصيات، وحمل التمهيد أخبار الحجّاج بن يوسف الثقفي، وأحوال العراق في ظل الدولة الأموية، وبها قيلت أشهر خطب الحجّاج، وكانت الفصول الأربعة كالآتي:

الفصل الأول: فن الخطابة؛ حيث عرفها الباحث في هذا الفصل، وتحدثت عن منزلة الخطابة في الجاهلية والإسلام، وعادات العرب في هذا الفن، والسنن التي اتبعوها لخطابتهم، وخصائص الشخص الذي يخطب فيهم، وعنهم أمام الوفود، وفي المناسبات، وأخيرا تحدثت عن كيفية بناء الخطبة العربية.

الفصل الثاني: أسلوبية الدوال (المفردات)؛ وتناول الباحث تأثير المفردات على المتلقين، وكيف انسجمت مع جو الخطبة، وكيف حقق الحجّاج مراده من خلال دلالة أصوات المفردات، وأبنيتها الصرفية، وتأثير إسقاط المقدمات التقليدية، والاستهلال بغيرها.

---

* صفوت، أحمد زكي، 1933م، "جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة"، ط1، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة.

* مثال: بلخيري، *البيان في خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي*.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثالث: الأسلوبية التركيبية والدلالية؛ بيّن هذا الفصل المعجم اللغوي الخاص بالحجّاج في خطبه ودلالتها، وعلاقة المعجم بشخصيته، ثمّ قراءة بعض التراكيب التي كررها في الخطب، مثل: النداء والاستفهام، والأمر والنهي.

الفصل الرابع: الأسلوبية البلاغية؛ ويبرز هذا الفصل مميزات التشبيه والاستعارة عند الحجّاج، وكيف استفاد من علوم البيان في تقريب البعيد، وتمثيل الخفي، والمبالغة في توظيف هذه الفنون، وأخيرًا تحدث الباحث عن الأسلوبية البديعية في الخطب، متناولاً الطباق والمقابلة، والسجع.

ودائماً أسأل الله القبول والفلاح، والتوفيق والسداد، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الباحث/

عبدالله ماهر السوسي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التمهيد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التمهيد

أولا: أخبار الحجّاج بن يوسف الثَّقَفي 40-95 هـ.

هو الحجّاج بن يوسف بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف، وهو قسي بن منبه بن بكر بن هوازن، أبو محمد الثقفي[1]، ولد ونشأ في الطائف –بالحجاز– بقرية الكوثر[2]، "وانتقل إلى الشام فلحق رَوْح بن زِنْباَع، نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته"[3].

والد الحجّاج –يوسف الثقفي– من سادات ثقيف وأشرافهم[4]، ذكر ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق أنَّ أباه كان فاضلاً من خيار المسلمين، وكان يدين بالطاعة، والولاء لدولة بني أمية، فاتصل بمروان بن الحكم، وخرج مع جيشهم يصحب ابنه الحجّاج معه، وشهد وقائع عديدة[5]، ينقل المترجمون أنَّ الحجّاج وأباه عملا معلمَين للغلمان في الطائف قبل قدوم الحجّاج دمشق[6]، فوليَ لعبد الملك بعض الولاية[7].

وأمه: الفارعة بنت همام بن عروة، سيدة نساء ثقيف وأكثرهنّ حلياً، فقد كانت عند المغيرة بن شعبة، وقيل: كانت عند طبيب العرب: الحارث بن كلّدة، وذلك قبل أبيه [8]، والأرجح أنَّها كانت تحت المغيرة، وعليه أغلب الروايات، وقد طلقها المغيرة، وخلف طلاقها من المغيرة قصةٌ يرويها ابن عبد ربه، وهي أنَّ المغيرة بن شعبة دخل على زوجته الفارعة، "فوجدها تتخلل حين انفلتت من صلاة الغداة، فقال لها: إن كنت تتخللين من طعام البارحة، فإنّك لقذرة، وإن كان من طعام اليوم إنَّك لَنَهِمة؛ كنت فبِنْت. قالت: والله، ما فرحنا إذ كُنّا ولا أسفنا إذ بنّا، وما هو بشيء مما ظننت، ولكني استكت، فأردت أن أتخلل للسواك؛ فندم المغيرة على ما بدر منه؛ فخرج أسفًا، فلقي يوسف بن أبي عقيل،

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية (ج9\155).
(2) زيادة، الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه (ص11).
(3) الزركلي، الأعلام (ج2\168).
(4) زيادة، الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه (ص11).
(5) انظر: الشافعي، "تاريخ مدينة دمشق (ج74/231، 232).
(6) الحسن، الدولة الأموية عوامل البناء وأسباب الانهيار (ص241).
(7) ابن قتيبة، المعارف (ص223).
(8) القحطاني، أبراج الزجاج في سيرة الحجّاج (ص94،95).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فقال له: هل لك إلى شيء أدعوك إليه؟ قال: وما ذاك؟ قال: إنِّي نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف، فتزوّجها، فإنها تنجب لك؛ فتزوّجها، فولدت له الحجّاج"[1].

ويدل أسف المغيرة على فراق الفارعة، وبيانه لوالد الحجّاج أنها خَلِيقَةٌ بأن تنجب، وبأن تأتي برجل يسود على عظمتها من ناحية، وشخصية والد الحجّاج من ناحية أخرى، ليحظى بهذه المرأة زوجةً له[2].

وبدأ سطوعُ نجمِ الحجّاج بن يوسف زمنَ خلافة عبدالملك بن مروان، وذلك عندما "شكا عبد الملك إلى رَوْح –وزيره ورئيس شرطته– أنَّ الجيش لا ينزلون لنزله، ولا يرحلون لرحيله، فقال روح: عندي رجلٌ توليِّه ذلك"[3]، وكان هذا الوزير يقصدُ الحجّاج أحد جنوده، ويبدو أنَّ رَوْح بن زِنْباَع وزيرَ عبدالملك، لم يكن ليقترح على الخليفة قائداً للجيش كالحجّاج من فراغ، في محاولة منه لمساعدة خليفة المسلمين –عبدالملك– في ضبط أمور الجيش، وتطويع الجند لأمره، فقد اشتهرَ الحجّاج بالشجاعة والذكاء، ويتجلى ذلك بقول أحد التابعين، وهو عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، قال: "ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضهم من بعض إلا ما كان من الحجّاج وإياس بن معاوية، فإن عقلهما كانا يرجحان على عقول الناس"[4].

وقصةُ ظهور الحجّاج، وتولّيه منصباً قياديًا في جيش عبدالملك بن مروان، تفيد أنَّ الحجّاج لم يتولّ أمرًا من أمور المسلمين عَنْوَةً، بل جاء بطريق شرعي قائم على المشورة، وفي هذه المشورة دلالة على طريقة الخليفة في تداول شؤون الدولة بين وزرائه، ثمَّ دور البطانة الصالحة التي تدل الخليفة على أمر رشد يُعز به الإسلام، حيث اختيرَ الرجل المناسب، للإمساك بألوية مفصلية في حياة الأمة، فولّى عبد الملك الحجّاجَ أمرَ الجيش؛ فتحسنت أحوال الجيش، وصاروا يلتزمون أوامر القادة، حتى إنَّ الحجّاج أجرى سياساته على روح بن زنباع، الذي كان سببا في ظهوره، فقد أنزل به عقابًا وأحرق له فسطاطًا[5]؛ فشكاه روح إلى الخليفة، وكان ردُ الحجّاج عليه عندما سأله عبدالملك عن صنيعه: "لم أفعله إنَّما فعلته أنت، فإنَّ يَدِيَ يدُك وسوطي سوطك، وما ضرّك إذا أعطيت

---

(1) ابن عبدربه، العقد الفريد (ج14/5).

(2) انظر: زيادة، الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه (ص13).

(3) الصَّلاَّبي، الدولَة الأمويَّة عَوامِلُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار (ج677/1).

(4) أمين، الحجّاج بن يوسف الثقفي: حياته، أخباره (ص63).

(5) الفسطاط هو بيت الشعر، لسان العرب (فسط).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

روحاً فسطاطين بدل فسطاطه وبدل الغلام غلامين، ولا تكسُرني في الذي وليّتني؟ ففعل ذلك وتقدم الحجّاج عنده"[1].

وتركت نشأةُ الحجّاج في الطائف أثرًا في حياته العقلية، وكانت سببًا رئيسًا في نبوغه؛ فالطائف واحة خضراء، في بلاد الحجاز فهي "ذات مزارع ونخل وأعناب وموز وسائر الفواكه وبها مياه جارية"[2]؛ فمزايا هذا البلد كفيلة بضمان الاستقرار لأهله، وخلق جو تصفو به العقولُ، وتتهيأ للانشغال بالعلوم، فالحجّاج برع باللغة وعُرف بالفصاحة، بل كان أفصح أهل عصره كما أخبر بذلك الرواة، فعن الأصمعي قال: "أربعة لم يلحنوا في جِدٍّ ولا هَزْل: الشّعبِيّ، وعبد الملك بن مروان، والحجّاج بن يوسف، وابن القِرِّيَّة، والحجّاج أفصحُهم"[3]، فأهلُ الطائفِ عربٌ أقحاحٌ، وممن روى عنهم العلماءُ اللغةَ العربية، "وجلّ أهل الطائف ثقيف وحمير وقوم من قريش، وهي على ظهر جبل غَزْوَان، وبغزوان قبائل هذيل"[4]، وبهذا يكون الحجّاج قد نشأ في بيئة عربية خالصة، ورَّثته الفصاحة كما يرث الابن ملامح أبيه وعائلته، فطبع على الفصاحة والبلاغة.

وفصاحةُ الحجّاج جعلته الأقدر على قيادةِ العراق، وحشدِ الناس لقتال الخوارج، إذ اعتراهم التردُدُ قبل ذلك، بينما كان السبق لزعماء الخوارج في القدرة على إقناع الناس، مستثمرين الشعور الديني لإثارة عواطفهم، وشَحْذِ هممهم، "فهذا العصرُ سارت فيه الشجاعة وراء البيان، وملك اللسان منه ما لم يملك السيف، وتسابق الناس فيه إلى غاياتهم، بحسب مقالاتهم"[5]؛ فكان لزامًا على ولي الأمر في العراق أن يكون مقتدراً فصيحاً، ولشدةِ تأثير خطبه –الحجّاج– على أهل العراق قال مالك بن دينار: "ربّما سمعتُ الحجّاج يذكر ما صنَعَ فيه أهلُ العراق وما صنَعَ بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه لبيانه وحُسنِ تخليصِه للحجج"[6].

---

(1) الحسن، الدولة الأموية عوامل البناء وأسباب الانهيار (ص241).

(2) الحموي، معجم البلدان (ج10/4).

(3) الزجاجي، الأمالي (ص20).

(4) الحموي، معجم البلدان (ج10/4).

(5) أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها في أزهر عصورها عند العرب (ص241).

(6) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (ج244/7).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان له إسهامٌ في تعريب الدواوين من الفارسية إلى العربية، الأمر الذي قلل من شأن الأعاجم، ونقل مناصبهم للعمال المسلمين، وقد وصف (مراد نشاه بن زادان) هذا الأمر بأنه قطع لأصل الفارسية فقال: "قطع الله أصلك كما قطعت الفارسية"[1].

وللحجّاج عنايةٌ بالقرآن الكريم، ففي عصره ظهر التصحيف، فلحن الناس بقراءة القرآن "ففزع إلى كتّابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات، فيقال: إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفرادًا وأزواجًا وخالف بين أماكنها"[2]، وكان حافظًا للقرآن، يتعهده بالقراءة كل ليلة، كما ذكر ابن كثير "قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كَانَ الحجّاج يَقْرَأُ القرآن كل ليلة"[3]، "كما كان يدني ويقرب من يحفظ القرآن...وكان يجمع الحفاظ والقراء، ويتذكر معهم في القرآن وأجزائه"[4]، وتذكر الأخبار أنَّ عمر بن عبدالعزيز يغبط الحجّاج على حبه للقرآن وتقديمه العطايا لأهله[5].

وسمع الحجّاج الحديث الشريف ورواه، وروى عنه آخرون؛ فقد "سمع ابن عباس، وروى عن أنس وسمرة بن جندب وعبد الملك بن مروان وأبي بردة ابن أبي موسى، وروى عنه أنس بن مالك، وثابت البناني، وحميد الطويل، ومالك بن دينار، وجواد بن مجالد، وقتيبة بن مسلم، وسعيد بن أبي عروبة"[6]؛ ولكنَّ علماء الحديث رفضوا الرواية عن الحجّاج، فمنهم من قال: إنَّه أهل ألّا يروى عنه، وليس بثقة ولا مأمون، ويعلل الإمام الذهبي رفض الرواية عن الحجّاج بقوله: "فلولا ما ارتكبه من العظائم والفتك والشر لمشى حاله"[7].

ولقرب الطائف من مكة؛ "كعبة الفصحاء والعلماء والشعراء"، ورحيله إليها باكرًا، أصبح الحجّاج عالمًا بعلوم تفسير القرآن الكريم، وحافظًا لكثير من أشعار العرب وأيامهم[8].

---

(1) أمين، الحجّاج بن يوسف الثقفي: حياته، أخباره (ص74، 75).
(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (ج32/2).
(3) ابن كثير، البداية والنهاية (ج157/9).
(4) طه، العراق في عهد الحجّاج بن يوسف الثقفي (ص52،53).
(5) انظر: المَدَرِيْ، الحجّاج بن يوسف الثقفي مواقف من حياته (دماء وعطاء) (ص90).
(6) ابن كثير، البداية والنهاية (ج155/9).
(7) انظر: القحطاني، أبراج الزجاج (ص115).
(8) انظر: زيادة، الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه (ص34،35).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعن تدين الحجّاج يقول ابن كثير: "إنَّه كان يتدين بترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن، ويتجنب المحارم، ولم يشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج"[1].

كما ويُشهد للحجّاج برجاحة العقل؛ فيروي عقبة بن عمرو أنَّه قال: "ما رأيت عقول الناس إلا قريبًا بعضها من بعض، إلا الحجّاج وإياس بن معاوية، فإنَّ عقولهما كانت ترجح على عقول الناس"[2]، فنشأته في كنف أبوين من أشراف العرب، وطبيعة المكان الذي ترعرع فيه، قريبًا من مكة –دار الثقافة في ذلك الوقت– لهي عوامل أسهمت في صنع قائد شهد التاريخ بحزمه وجسارته، وهمته العالية، واقتداره في البيان والفصاحة، وتسلم الإمارة على محمل الجِد.

وللحجّاج مواقف في احترام أهل بيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وتقديرهم؛ فهو يطلب القرب منهم، وصلتهم بزواجه ببنت عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وعلى الرغم من أنَّه طلقها؛ فما زال واصلاً لعبدالله حتى مات، "فكان يرسل له في كل شهر عِيْرَاً تحمل كسوة وتحفاً وميرة وكل ما يحتاج إليه"[3]، وهذا الشاهد يفند الأقوال التي تَدَّعي أنَّ الحجّاج قد ناصب أهل البيت العداء، والصحيح أنَّه كان يرفض الأصوات التي تنادي بالخروج على الخليفة عبدالملك، والطامعين بكرسي الخلافة، وهذا ما سنتعرف عليه لاحقًا في سبب قتاله عبدالله بن الزبير وأخويه مصعب وعروة.

وله –أيضًا– مواقف تظهر احترامه للعلماء وتقديرهم، والأخذ بنصحهم برحابة صدر؛ يُذكر "أنَّ الحجّاج بن يوسف صلى مرة بجنب سَعِيد بن المُسَيِّب –وذلك قبل أن يلي شيئا– فجعل يرفع قبل الإمام ويقع قبله في السجود، فلما سلم أخذ سعيد بطرف ردائه –وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة– فما زال الحجّاج ينازعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره، ثمّ أقبل عليه سعيد فقال له: يا سارق يا خائن، تصلي هذه الصلاة، لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك"، فلم يرد عليه الحجّاج ومضى، وبعد مدة زمنية طويلة رحل فيها الحجّاج ما بين مكة والشام، رجع إلى المدينة نائبًا عليها، "فلما دخل المسجد إذا مجلس سعيد بن المسيَّب، فقصده الحجّاج فخشي الناس على سعيد منه، فجاء حتى جلس بين يديه فقال له: أنت صاحب الكلمات؟ فضرب سعيد صدره بيده وقال: نعم!

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية –دار أبي حيان– (ج175/9).

(2) المرجع السابق، ج157/9.

(3) الصلَّابي، الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار (ج1\679).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قال: فجزاك الله من معلم ومؤدب خيرًا، ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك"[1]، فلو كان الحجّاج يضرب الأعناق لأدنى شبهة، لكان الأولى له أن يضربَ عُنقَ سعيد بن المسيِّب لجرأته عليه في التوبيخ؛ ولكنّها جرأة العالم وتأدب الحجّاج معه، وأما مقتل سَعيد ابن جُبَير على يد الحجّاج، فقد كان بعد أن خرج على الخلافة في ثورة ابن الأشعث، أما قبلها فقدم له الحجّاج الاحترام المطلوب للعلماء، وولّاه القضاء والمناصب وقرَّبَه منه[2].

ومن المهام التي أسندها الخليفة عبدالملك بن مروان –بعد القضاء على ثورة مصعب بن الزبير، سنة اثنتين وسبعين للهجرة في العراق– للحجّاج، مهمة تطويع الحجاز لدولة بني أمية، بعد أن استأثر بها عبدالله بن الزبير بعيد مقتل الحسين بن علي –رضي الله عنهم جميعًا– فاستغل ابن الزبير هذه الحادثة ليؤلب أهل الحجاز على بني أمية، ويخرج من عباءة الخلافة[3]، فتوجه الحجّاج بجيش الخلافة إلى الحجاز ونجح في دخول مكة، وتطويع الحجاز عامة بعد أن قضى على دولة عبدالله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين للهجرة، وانتهت إمارة الحجّاج على بلاد الحجاز وقد عمل على تعمير البلاد، وإعادة الكعبة على ما كنت عليه في عهد الرسول –صلى الله عليه وسلم– وتوصيل المياه لأهل مكة.

ثمّ وُليّ الحجّاجُ أمر العراق، بعد وفاة أخيه بشر بن مروان والي البصرة والكوفة، لأنَّ طبيعة المرحلة التي مرَّ بها العراق في ذلك الوقت، كانت تتطلب قائدًا حازمًا كالحجّاج، فالاستقرار الذي أعقب سيطرة الأمويين على العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير كان مهلهلًا، فالقائد الأموي المُهَلَّب بن أَبي صُفْرَة كان دائم الانشغال بإخماد الثورات الناشئة في العراق، خصوصًا بعد مقتل الحسين، مع وجود جماعات تجتمع على كراهية الدولة الأموية، واستخفاف أهل العراق بولاة بني أمية، وعادة رميهم بالحصى على المنابر، فهذه الأحداث دفعت المهلب إلى الطلب من الخليفة أن يبعث إليه شخصية قوية، قادرة على قيادة المرحلة الحرجة في العراق، وعليه دفع عبدالملك كتاب التكليف إلى الشخص الأقدر على هذه المهمة، وهو الحجّاج وأمَرَهُ ألا يتعامل مع أهل العراق بهوينا الحجاز[4]، وطبيعة العراق كما طالعتنا المصادر التاريخية أنَّه "مهد الثورات

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية (ج158/9).

(2) انظر: أمين، الحجّاج بن يوسف الثقفي: حياته، أخباره (ص67).

(3) انظر: زيادة، الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه (ص62).

(4) انظر: القحطاني، أبراج الزجاج في سيرة الحجّاج (ص105).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وموطن الخارجين على الخلافة"[1] فكانت هذه البلاد نقمة على دولة الخلافة، حتى أسند عبدالملك أمرها إلى الحجّاج، وبعث إليه بخطة؛ لدخولها، وتطويع أهلها له، فدخل الكوفة حسب المخطط المرسوم، وخطب بها خطبته المشهورة التي صدّرها بالبيت الشهير:

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضَعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

وقرأ عليهم كتاب الخليفة، الذي يحوي خطاب تكليفه أمر العراق، ولِما عرفه عنهم أنَّهم مغمورون بالشر، أفصح لهم بالخطبة عن قوته، وتوعد كل من تسول له نفسه الخروج عن الطاعة لأمير المؤمنين، وانتهت خطبته ببيعة القبائل للخليفة[2]، وثبتت له إمارة العراق عشرين سنة[3].

"وفتح فيها _بالعراق_ فتوحات كثيرة، هائلة منتشرة، حتى وصلت خيوله إلى بلاد الهند والسند، ففتح فيها جملة مدن وأقاليم، ووصلت خيوله –أيضا– إلى قريب من بلاد الصين"[4].

وأمَّا القسوة والبطش والتنكيل بالناس، وغيرها من صفات الشدة، والحزم التي عرف بها الحجّاج، وما تناقلته ألسنة الناس فقد كان لها أسبابها، ومن غير الإنصاف أن نصدق الروايات التي تظهر الحجّاج غارقًا بالدم حتى أذنيه، فلا بد من التأني، وقراءة المصادر التاريخية الموثوقة، وإلا فأين سنذهب بالشهادات التي تقر لين الحجّاج؟ كالشهادة التي نقلها الذهبي في تاريخ الإسلام عن عَبْدِ اللَّهِ بن شَوْذَبٍ: "ما رُؤِيَ مثلُ الحجّاج لمن أطاعه، ولا مثله لمن عصاه"[5]، ولنعلم أنَّ الشيعة الذين نكَّسَ الحجّاج راياتِ ثوراتهم، كان لهم يدٌ في تشويه سيرته "فإنَّ الشيعة كانوا يبغضونه جدًا لوجوه، وربما حرّفوا عليه بعض الكَلِم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات"[6].

فقسوة الحجّاج كانت موجهة للخارجين على الخلافة، وقد اعتبر الحجّاج هذا الخروج مدعاة للفتن، فكان لا بد من استئصال أسبابها، والقسوة والشدة محمودةٌ مع أهل

---

(1) زيادة، الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه (ص77).
(2) انظر: زيادة، الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه (ص77، ..، 89).
(3) الزركلي، الأعلام (ج168/2).
(4) ابن كثير، البداية والنهاية (ج158/9).
(5) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (ج318/6).
(6) ابن كثير، البداية والنهاية (ج175/9).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفتن والثارات[1]، فكان مما خطب به الناس بعد أن ارتجت مكة بالبكاء على عبدالله بن الزبير: "يا أهل مكة! بلغني إكباركم قتل ابن الزبير، ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها أهلها، فنزع طاعة الله واستكنّ بحرم الله، ولو كان شيء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الله، إن الله خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأباح له كرامته، وأسكنه جنته، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة، اذكروا الله يذكركم"[2].

وأما قسوته على أهل العراق فيعللها ابن كثير بقوله: "وبالجملة فقد كان الحجّاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة، وخذلانهم لهم، وعصيانهم، ومخالفتهم، والافتيات عليهم"[3].

توفيَ الحجّاج يوم الجمعة، لتسع بقين من رمضان، سنة خمسٍ وتسعين للهجرة، وقيل: مات في شوال وهو ابن أربع وخمسين سنة، وقيل: ثلاث وخمسين سنة[4]، ودفن في واسط المدينة التي أنشأها، وقد توفي بمرضٍ يدعى الأكلة يقع في البطن، ولما سمع الناس باحتضار الحجّاج اطلقوا ألسنتهم عليه واتهموه في دينه أشاعوا بأنه من أهل النار، وقال أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ، عَنِ الرِّيَاشِيِّ، عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قال: لما حضرت الحجّاج الوفاة أنشأ يقول:

يا ربِّ قدّ حَلَفَ الأَعْدَاءُ واجْتَهَدُوا ... بِأَنَّنِي رَجُلٌ مِنْ سَاكِنِي النَّارِ

أَيَحْلِفُون على عَمْيَاءَ؟ وَيْحَهُمُ ... مَا عِلْمُهُمْ بِعَظِيمِ العَفْوِ غَفّارِ

قال فأخبر بذلك الحسن فقال: بالله إن نجا لينجونّ بهما[5].

---

(1) أمين، الحجّاج بن يوسف الثقفي: حياته، أخباره (ص62،63).

(2) ابن كثير، البداية والنهاية (ج158/9).

(3) المرجع السابق، ج173/9.

(4) القحطاني، أبراج الزجاج في سيرة الحجّاج (ص116).

(5) ابن كثير، البداية والنهاية (ج182/9).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانيًا: أحوال العراق في ظل الدولة الأموية:

تربع العراق في الدولة الإسلامية –الخاضعة للحكم الأموي– على بقعة جغرافية ممتدة، فبالإضافة إلى العراق الحديث، توسع إقليم العراق في ذلك الوقت؛ ليضم الأجزاء الشرقية من شبه الجزيرة العربية، وهي ما نعرفه اليوم بالبحرين وعمان والكويت والإحساء وقطر وجزر البحرين الحالية، ودولة الإمارات العربية المتحدة[1]، وذلك أنَّ الخليفة كان يسند إلى والي العراق أمر هذه البقعة الجغرافية الممتدة، ووَسَّعَ آخرون من سلطة والي العراق؛ ليصبح "عملُ العراق من هيت إلى الصين والسند والهند والريّ وخراسان وسجستان وطبرستان إلى الديلم والجبال، ... وأصبهان سنّة العراق"[2]، هذه الحدود الإدارية لولاية العراق، أما الحدود الجغرافية للعراق فتمتد من "الجزيرة شمالا إلى عبادان جنوبا، ومن القادسية غربا إلى حلوان شرقا"[3].

وتوفرت في العراق مقومات أساسية لقيام الحضارات، وأهمها غزارة المياه المتمثلة في نهري دجلة والفرات، فالعراق "خَصُبَتْ أرضه وغزر ماؤه واعتدل جوه، فكان من أسبق الأقاليم مدنية وعمرانًا، فقديمًا تعاقبت عليه الأمم المتحضرة من نحو ثلاثين قرنًا قبل الميلاد"[4]، واستوطن العراقَ العديدُ من الأجناس، والأخلاط العربية وغير العربية؛ فسكنه العرب، ومعظمهم من نزار واليمن، والفرس، والسريان، والأنباط، والمسيحيين، واليهود.[5]

وكان العرب أنفسهم يختلفون عن بعضهم بعضاً، فمنهم من كانوا بدواً شديدي البداوة، كبني دارم من تميم، أو اليمانيين القدماء، الذين كانوا مجاورين لهم من قبل طيِّء، ومنهم من كانوا أنصاف بدو، مثل أسد وبكر، بينما عبد القيس كانوا متأثرين بالفرس، أمّا العناصر العربية الجنوبية الذين نزحوا من اليمن وحضرموت؛ فكانوا أكثر حضارة من غيرهم، خاصة مذحج وحمير وهمذان[6].

اشتعل العراق في ظل الحكم الأموي بنار الخلافات ذات المرجعية المذهبية، أو القبلية والعرقية، أما الخصومة السياسية فقد اشتعلت بين الخوارج والشيعة، وبين

---

(1) انظر: الصلابي، الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار (ج1\668، 669).

(2) الحموي، معجم البلدان (ج4\106، 107).

(3) طه، العراق في عهد الحجّاج بن يوسف الثقفي (ص56).

(4) أمين، فجر الإسلام (ص179).

(5) انظر: طه، العراق في عهد الحجّاج بن يوسف الثقفي (ص105).

(6) المرجع السابق ص106.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمويين، والخصومات القبلية فقد اشتعلت بين العرب العدنانيين، والعرب القحطانيين أصحاب الأغلبية[1].

ظهرت بالعراق حركة علمية نشطة دفعت عجلتها مجموعة من الأسباب، منها انتقال نخبة من صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى العراق، على رأسهم علي ابن طالب وعبدالله بن مسعود –رضي الله عنهم–، وهؤلاء قد أسسوا لمدارس فقهية، وشرعية ورثها عنهم التابعون، وتلامذتهم في عهد الدولة الأموية، وتبنت الكوفة مثل هذه المدارس واحتضنت أئمة القراءات أمثال عاصم (ت127هـ)، وحمزة (ت156هـ)، والكسائي(ت189هـ)[2].

ومن الأسباب التي كان لها دورٌ بارزٌ في إذكاء الحركة العلمية في العراق، هو التمازج الكبير بين العراقيين قبل الإسلام مع كل من الحضارات "البابلية والآشورية والكلدانية والفارسية واليونانية كل هؤلاء انشأوا في العراق ممالك تختلف صبغتها، وكانت مدينتهم مناراً يلقي أشعته على ما حوله من البلدان"[3]؛ فقد أهدى العراق كلَّ ما عرفته الحضارة الفارسية وما وراءها للعرب، وكلَّ ما تأثر به العراق، "وقد اتسعت هذه التأثيرات في العصر الأموي، وأخذت تدفع العرب دفعًا إلى أن يُؤَسسوا –على مناهج صحيحة– دراساتهم المختلفة"[4]، " فلما دخل أهله في الإسلام فعلوا في العلوم العربية على قياس أممهم السابقة، فما كان منهم إلا أنْ طبقوا ما عرض في الإسلام على ما جرى عليه آباؤهم"[5].

والأسباب السابقة دفعت أهل العراق إلى جمع وتدوين اللغة العربية، ووضع قواعد لها، ورواية الشعر، والأخبار، إضافة إلى وجود المادة العلمية المحفوظة على ألسنة أصحاب اللغة، وهم القبائل العربية التي سكنت العراق كأسد وتميم وطيء، وهم الذين أخذ عنهم الرواة اللغة العربية الفصحى؛ وهذا النشاط العلمي أوجد المادة العلمية والمنهج العلمي، وما جعل العراق الإقليم الأكثر نشاطًا في علوم العربية هو "انتشار العناصر الأجنبية فيه، تلك العناصر التي اعتنق أكثرها الإسلام، فرأوا أنهم في حاجة إلى تعلم

---

(1) انظر: ضيف، شوقي، التطور والتجديد في الشعر الأموي (ص40، 41).
(2) انظر: خليف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة (ص143...247).
(3) أمين، فجر الإسلام (ص179).
(4) ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي (ص39).
(5) أمين، ضحى الإسلام (ص278).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العربية لغة دينهم الجديد"[1]، والحاجة إلى تعليم الأعاجم العربية دفع لتأسس علم العربية وفق مناهج علمية صحيحة، وُرثت من الحضارات الأجنبية، ليسير متعلم العربية على طريق واضحة المعالم، في سبيل تعريب لسانه الأعجمي.

وأدى التطور في العقلية المسلمة في العراق، إلى تكون مدارس كلامية تبحث في مسائل القدر؛ فنشأت المدرسة العقلية، وإمامها الحسن البصري، ومدرسة الاعتزال، وإمامها واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري[2].

وهكذا تعددت أحوال العراق زمن الخلافة الأموية، في أتون نار الخلافات السياسية، التي استطاع الأمويون السيطرة عليها أغلب الوقت، وكذلك شهدت الحالة العلمية حركة نشطة، بسبب الفتوح، وتعدد جنسيات الأفراد داخل حدود العراق، والعقول الوافدة إليها.

(1) خليف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة (ص259).

(2) انظر: ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي (ص38).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الأول

فـن الخطابة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الأول: فن الخطابة

المبحث الأول: الخطابة لغةً واصطلاحًا

أولًا: الخطابة لغة

ذكرَ ابن منظور تحت مادة (خطب) ما يلي:

"الخَطْبُ: الشَّأْنُ أَو الأَمْرُ، صَغُر أَو عَظُم؛ وَقِيلَ: هُوَ سَبَبُ الأَمْر"[1]، و "خَطَب الخاطِبُ عَلَى المِنْبَر، واخْتَطَب يَخْطُبُ خَطابَةً، واسمُ الكلامِ: الخُطْبَة"[2]، ونقل عن أبي إسحاق قوله: "الخُطْبَة عندَ العَرَب: الكلامُ المَنْثُورُ المُسَجَّع"[3].

وورد في أساس البلاغة للزمخشري أنَّ الخطابة بمعنى: "المواجهة بالكلام"[4]، والخُطْبَةُ في المقاييس: الكلام المخطوب به، أي الكلام بين اثنين[5].

وجاء في المعجم الوسيط "(الخطابة) قياس مؤلف من المظنونات أو المقبولات"[6]، وهذا التعريف يتوافق مع رؤية المنطقيين، الذين يقولون أنَّ: "الخطاب مواده من المشهورات التي تصلح لخطاب الجمهور، سواء كانت علمية أو ظنية"[7]، وهو قولٌ أورده ابن تيمية في كتابه (الرد على المنطقيين) ثمّ خطّأه، بقوله: "أمّا كون الخطابيات هي الظنيات مطلقاً فهذا خطأ عند القوم"[8].

ثانيًا: الخطابة اصطلاحًا

تداولَ مصطلحَ الخطابةِ علماءُ الأدب والفلاسفة والمناطقة، وكان مما اتفقت عليه تعريفاتهم مهما اختلفت طرق تحديد الاصطلاح، هو الهدف من الخطابة؛ فاتفقوا أنَّ هدف الخطيب هو: التأثير على الجمهور، واقناعهم بفكرة ما.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب (خطب) (ج1\360).
(2) المرجع السابق، (خطب) ج1\361.
(3) المرجع نفسه (خطب) ج1\361.
(4) انظر: الزمخشري، أساس البلاغة (خطب) (ج1\255).
(5) انظر: ابن فارس، المقاييس في اللغة (ص323).
(6) انظر: أنيس وآخرون، الوسيط (خطب) (ج1\243).
(7) ابن تيمية، الرد على المنطقيين (ج2\169).
(8) المرجع السابق، ج2\170.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ففي كتاب (الخطابة) عرفها أرسطو بأنَّها: "قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحدٍ من الأمور المفردة"[1]، وعدة أرسطو للإقناع ثلاثة أنواع: كيفية المتكلم وسمته، وتهيئة السامع واستدراجه نحو الأمر، وأخيراً ما يكون بالكلام نفسه[2]، وكأنَّ الخطبة عند أرسطو قائمة من أجل الإقناع.

وأمّا المناطقةُ والحكماءُ فقد عرّفوا الخطابةَ على أنَّها: "القياس المؤلَف من المظنونات أو المقبولات لترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم أو معادهم"، وقد جعل الحكماءُ المنطقَ على ثلاثةِ أقسام مرتبة حسب الوصول إلى التصديق؛ فالأول: البرهان، هو الذي يوصل إلى التصديق يقينًا، وثانيًا: الخطابة، وهي التي توقع ظنًا، أو محمولاً على الصدق، وفي المرتبة الأخيرة: الشعر، فوظيفته عندهم الخيال[3].

وفي كتاب (التعريفات): "قياس مركب من مقدمات مقبولة، أو مظنونة، من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم، كما يفعله الخطباء والوعاظ"[4].

ويُعرف الإمام محمد أبو زهرة الخطابة بأنها: "صفةٌ راسخةٌ في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف في فنون القول؛ لمحاولة التأثير في نفوس السامعين"[5].

وقد خالف الإمام محمد أبو زهرة ما ذهب إليه الحكماء بشأن الخطابة، ودحض زعمهم بأنَّ الخطابة لا تعتمد إلا على الظن، ويرى أنَّها "كثيرًا ما تعتمد على أقوى الأدلة إلزامًا، وأشدها قطعًا في الاستدلال"[6].

والخطابة في عرف الأدباء: "اسمٌ للكلام المنثور سجعًا كان أو مرسلاً، أو إلقاء الكلام المنثور مسجوعًا كان أو مرسلاً، لاستمالة المخاطبَين إلى رأي أو ترغيبهم في

---

(1) ارسطوطاليس، الخطابة (ص9).
(2) المرجع السابق، ص10.
(3) انظر: أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها في أزهر عصورها عند العرب (ص15).
(4) الجرجاني، التعريفات (ص167).
(5) أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها في أزهر عصورها عند العرب (ص15).
(6) المرجع السابق، (ص15).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عمل"[1]، وهذا التعريف ينبه إلى قيمة انتقاء ألفاظ الخطبة، مع استخدام الألوان البلاغية، والموسيقية؛ وغايتها التأثير والإقناع.

والملاحظ من الاصطلاحات السابقة أنَّ أصحابها قد أرجعوا قوة الإقناع في الخطابة إلى ثلاثة أمور: فالمَلَكةُ عند أرسطو والإمام محمد أبو زهرة هي مرتكزُ الخطابة للوصول إلى الاقناع، وهي التي تمكن الخطيب من استغلال فنون القول أحسن استغلال؛ والخطابة عند الأدباء تعتمد على فنون القول، دون ذكر أي دور للخطيب.

أمّا أصحاب المنطق فيرجعون قوة الإقناع في الخطبة إلى سوق الأدلة والبراهين، وكميتها.

ولو جُمعت هذه الأركان الثلاثة في تعريف واحد للخطابة لكان مفهوم الخطبة أبين وأكمل.

فالخطابة: فنٌ قوليٌ منثورٌ، يلقيه على جماعة من الناس، في أمرٍ ما متكئاً على الأدلة والبراهين بهدف اقناع الناس والتأثير فيهم.

(1) محفوظ، فن الخطابة واعداد الخطيب (ص14).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني: منزلة الخطابة في الجاهلية والإسلام.

اقتضت السُنَنُ الكونية أن يتجمعَ البشرُ داخلَ كيانات مختلفة، كبيرةً كانت أو صغيرة، تتعدد تسمياتها وفق المبدأ الذي يتشكل منه التجمع البشري، فقد يجتمع الناس تحت مسمى عائلة أو قبيلة أو شعب ...، كما اقتضت تلك السُنَنُ أن يقفَ شخصٌ ما أمامَ هذه التجمعاتِ البشريةِ خطيبًا، يتصدرهم المشهد، ويحاكي طموحاتهم وهمومهم، ويكون على قدر عالٍ من الذكاء، وسرعة البديهة، لمواجهة الكثير من العقول أمامه، ويصل بمراده إليهم، مستخدمًا فنون القول وغيرها من الأدوات؛ لذلك تبوَّأت الخطابةُ منزلةً خاصةً عند المجتمعات المختلفة على مر العصور.

أولاً: منزلة الخطابة في الجاهلية.

كان العرب قبل الإسلام يتوزعون على قبائل، تعيش ظروف صحراء الجزيرة العربية القاسية، وتجتمع هذه القبائل المختلفة في مناسبات كثيرة، ولأن لكل قبيلة أعرافها التي بموجبها يتجمع أفرادها، وتنظم أمور معاشهم بشكل جماعي، نزلت الخطابة عند العرب في الجاهلية منزلةً مرموقةً، لأنها تُوجه إلى جمهور واسع في العادة، وليس أدلّ على ذلك أنَّ "ما تكلمت به العرب من جيّد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون"[1].

وعندما يقال " جيّد المنثور" ينبغي أن ينبهنا وصف المنثور من الكلام بأنه (جيّد) بأمرٍ مهم، وهذا الأمر يتعلق بالخطيب، ويتعلق بجماعة المخطوبِين، وما يتعلق بالكلام المجوّد نفسه، مع ملاحظة أنَّ هذه الأمور الثلاثة هي عناصر الخطابة[2]، والحديث هنا عن الخطابة في الجاهلية، وكما نعلم أنّ هذه الفترة الزمنية التي امتدت قرن ونصف من الزمن قبل الإسلام، كان اللسان العربي فيها فصيحاً، إذ لم تُلوثْهُ شائبةُ اللحن، فإن اللغة الفصيحة كانت رأس مال العربي، إذ كان لديه الكثير من الثوابت والخصال التي يريد القول فيها، مفاخراً "في الحسب والنسب وقوة العصبية وشرف الخصال من الشجاعة والكرم والنجدة وحماية الجار وإباءة الضيم، وللقول في ذلك أثر لا يقل عن الصَوْل..."[3]، وعلى هذا فإنَّ الخطيب العربي سخّرَ اللغة لكي تفصح عن أغراضه،

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين (ص153).

(2) انظر: المري، الخطابة عند الفاروق دراسة أسلوبية (ص12).

(3) محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب (ص21).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولكن أن يكون الجميع على قدر عالٍ من الفصاحة جعل من الخطابة أمرًا معقدًا، وسلمًا صعبًا مرقاه.

إنَّ الشخص الأقدر على الخطابة في قوم فصحاء ينبغي أن يكون "من أسدِّ العرب رأيًا، وأحكمهم نظرا وأبعدهم مدى، فرجاحة الفكر أولى مميزات الخطيب العربي في قومه، فأكثم بن صيفى أحكم تميم، وقس بن ساعدة من أقوى أهل الفكر عند العرب..."[1]، والأكثر أهمية أن يعلو الخطيب قومه فصاحةً، ولعظيم منزلة الخطابة عندهم حرصوا على أن تكون لغتها من أجود ما يقدر عليه أفصحهم لسانًا، فتصبح جودة الخطبة مركبة، وأمرًا مسلمًا به.

ونافس الخطيبُ في الجاهلية الشاعرَ، حتى تفوق عليه، ولهذا التفوق أسباب تفسره، منها ما ورد على لسان الجاحظ، في قوله: "كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم إليه أحوج، لردّه مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر"[2].

ويرى أبو عمرو بن العلاء سببين آخرين، وهو التكسب بالشعر والطعن بأعراض الناس، "فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"[3]، ونلاحظ أن الأسباب آنفة الذكر التي قدمت الخطيب وأخرت الشاعر لا تتعلق بجودة المنثور أو الموزون، وإنما تتعلق بابتذال الشعر، الذي حطّ من قيمته، وجعل الناس ينفرون منه ويتجهون للخطابة التي حافظت على مكانة سامية عند العرب، إذ "إنَّ الخطابة كانت من لوازم سادتهم الذين يتكلمون باسمهم في المواسم والمحافل العظام، ومن أجل ذلك كانت تقترن بها الحكمةُ والشرف والرياسة"[4].

ويضيف الدكتور شوقي ضيف سببًا آخر، وهو اتساع وظيفة الخطيب في الجاهلية، إذ كان يشترك مع الشاعر بوظائف، مثل: المفاخرة والمنافرة عن قومه، والحض على القتال، وينفرد عن الشاعر بمواقف أخرى، مثل: الوفادة على الملوك، والنصح

---

(1) أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها في أزهر عصورها عند العرب (ص191).

(2) الجاحظ، البيان والتبيين (ص598).

(3) المرجع السابق، ص134.

(4) ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي (ص28).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والإرشاد، والإملاك والزواج، وأهم المواقف التي ينفرد بها هي الدعوة إلى السلم ووضع أوزار الحرب[1]، ولذا فإنَّ الخطابة في الجاهلية نتاج أحداث ذات طبيعة قبليّة.

وإكباراً للخطابة في الجاهلية فهناك سننٌ متبعة، وعاداتٌ شائعة، وعيوبٌ غير محبذة، فمن عاداتهم "أنّهم كانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام والمجامع الكبار، وكان من عادتهم لوث العمائم على رؤوسهم والإشارة في أثناء خطابته بالعصيّ والمخاصر[2] والقنا والقضبان والقسيّ"[3].

وكانوا يحبون الخطيبَ أنْ يكون شجاعاً جريئاً، ثابت الجنان، رابط الجأش، لا اضطراب، ولا وجل ولا خوف، واستحسنوا –أيضًا– جهارة الصوت، واستحبوا من الخطيب خصال جمالية: كسلامة الأسنان والفم، وقوة الجثمان، واستقامة القناة، وبياض الوجه، والعلو على الخصوم في مضايق الكلام ومآزق الخصام، كما وعابوا على الخطيب عادات أخرى، مثل: أن يمس الخطيب ذقنه وسباله وشواربه[4].

وإذا كان الشاعرُ ملتزمًا بالوزن والقافية، فإنَّ الخطيبَ يقعُ على عاتقه التزامَ أمورٍ كثيرة، إن أهملها أو أهمل شيئا منها رجعت النقيصة إليه، وتوجهت اللائمة عليه، منها: تبيُّنُ من يخطب عنه وإليه، حتى لا يرفع وضيعًا، ولا يضع رفيعًا؛ التصرف في النقض والإبرام، والبسط والانقباض، مراعاةً لأحوال الزمان، وعوارض الحَدَثان؛ أن يعلم أوقات الإسهاب والتطويل، والإيجاز والتخفيف[5]، والتزام الخطيب بهذه الأمور تدل على نباهته من جهة، وبلاغته من جهة أخرى.

وصارت الخطابة في الجاهلية ضمن الأغراض الشعرية التي يُنظم لها، فترى الشاعر يذكر مناقب خطيب قومه، ويفخر بقوة بيانه؛ فالشاعر الجاهلي قيس بن عاصم المِنقريّ يذكر ما في بني مَنقر من الخطابة:

إنّي امرؤٌ لا يعْتَري خُلُقي ... دَنَسٌ يفنِّدُه ولا أفنُ

(1) انظر: ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي (ص29).
(2) شيء يشبه العصا.
(3) ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي (ص32).
(4) انظر: ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي (ص33)، وأبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها في أزهر عصورها عند العرب (ص191).
(5) انظر: منّاع، النثر في العصر الجاهلي (ص57).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من مَنْقَرٍ من بيتِ مَكْرُمة والأصل يَنْبُتُ حَوْلَه الغُصْنُ
خطباء حِين يقوم قَائِلهمْ بيضُ الوجوه مَصاقعٌ لُسْنُ[1]

فالبلاغة وجهارة الصوت في البيتِ الثالث هي محل فخر الشاعر، وبهما يوصف الخطيب البارع.

وشاعرٌ آخر يرى منطق خطيب قومه مثل بُردَة زانها الوَشْيُ، ففي رثاء ابن عمَّار خطيبِ طيّء، الذي قتله النُعمان ونديمه، يقول أبو قردودة:

يا جفنةً كإزاء الحَوْضِ قد هدموا ومنطقًا مثل وَشْي اليَمْنة الحبِرَه[2]

وسمّى العرب طائفة من الخطب ذات الفصاحة العالية، التي تعتبر من روائع المنثور، وذكر الجاحظ منها "الخطبة العجوز" وهي لآل رقبة، وتعتبر من مصادر البيان عندهم، فمتى تكلموا "فلا بد لهم منها أو من بعضها"؛ و"الخطبة العذراء" لقيس بن خارجة بن سنان، وسُميت بالعذراء لأنه كان " أبا عذرها"، أي أول مَن افتضها، وبها أنهى حرب داحس والغبراء، فامتدت خطبته بالمتنازعين من طلوع الشمس حتى غروبها، أمر فيها بالتواصل ونهى عن التقاطع[3]، و"الخطبة الشَوْهاء[4]" وهي لسحبان بن وائل، ولروعة بيانها قد أسكتت الشعراء والخطباء عندما قيلت في حضرة معاوية[5].

برزت في الجاهلية أسماءٌ لامعةٌ في سماء الخطابة، عُرف أصحابها بأنَّهم أربابُها، يُضرب المثل بخطابتهم، فهم سادة الكلمة، وأصحاب المنطق القويم، فعُرف منهم الكثير، وكان أقدمهم "كعب بن لؤي –الجد السابع لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم– كان يخطب العرب عامة"[6] مثل: ابن عمّار الطائي وهو خطيب مذحج كلها، والشاعر لبيد بن ربيعة العامري، الذي قال مفاخرًا:

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين (ص123). والأفْن هو النقص، ابن منظور، لسان العرب (أفن)(ج13\19). مَصاقعٌ جمع مِصْقَعٌ، وهو: البَلِيغ، وقِيلَ: هُوَ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ، ابن منظور، لسان العرب (صقع)(ج8\203).

(2) الجاحظ، البيان والتبيين (ص125). والوَشْيُ: يَكُونُ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ، ابن منظور، لسان العرب (وشي)(ج15\392). والحَبَرَةُ: ضَرْبٌ مِنْ بُرُودِ الْيَمَنِ، ابن منظور، لسان العرب(حبر)(ج1\604).

(3) انظر: أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها في أزهر عصورها عند العرب (ص189).

(4) و"الشَّوَهُ: الحُسْنُ"ابن منظور. لسان العرب (شوه)(ج13\509).

(5) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين (ص184).

(6) أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها في أزهر عصورها عند العرب (ص193).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأبيضَ يَجْتاب الخُروقَ على الوَجى خطيبًا إذا التفَّ المجامعُ فَيْصلا[1]

وخطيب تغلب: عمرو بن كلثوم؛ ومن غطفان: قيس بن خارجة بن سنان، الذي خطب في داحس والغبراء، وأشهر قبائل العرب خطابةً: إياد وتميم، والأشهر في إياد قس بن ساعدة، خطيب العرب قاطبة، الذي أصبح نصُ خطبةٍ له محفوظ في السنة المطهرة، لأنّ النبي –صلّى الله عليه وسلّم– رواها عنه، ومنها: "أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَعُوا، مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ...، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَرًا، وإِنَّ فِي الأَرْضِ لَعِبَرًا! مَا بَالُ النّاسِ يَذْهَبُونَ وَلاَ يَرْجِعُون؟ أَرَضُوا فَأَقَامُوا؟ أَمْ تُرِكُوا فَنَامُوا؟"[2]؛ ومن تميم: أكثم بن صيفي، وعطارد بن حاجب بن زرارة، خطيبُ وفدِ تميم بين يدي الرسول –صلّى الله عليه وسلّم–، وعمرو بن الأهتم المَنقري، وهو أخطب أهل زمانه في البادية[3].

وعرفَ الجاهليون ألوانًا من الخطب، لكل لون منها مناسبة توشح بها، وغرض تؤدى فيه، ومنها[4]:

1. الخطب السياسية والحربية: واكبت هذا النوع من الخطب كثرة حروبهم وصراعاتهم القبلية.
2. الخطب الدينية: تدعو إلى التدبر والتأمل في بديع خلق السماء والأرض، مثل: خطبة قس بن ساعدة.
3. الخطب الاجتماعية: ولها أنواع تعبر عن مناسبات الجاهليين بكل أنواعها؛ ومنها: خطب المحافل والوفود، خطب الزواج، خطب إصلاح ذات البين، خطب التأبين والتعزية، الوصايا الاجتماعية.

---

(1) يجتاب: جابَ يَجُوبُ جَوْباً: قَطَعَ وخَرَقَ، ابن منظور، لسان العرب (جوب)(ج1\285). الوجى: الوَجا شِدَّة الْحَفَا، ابن منظور، لسان العرب(وجا)(ج15\378).

(2) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى (ج211/1).

(3) انظر: ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي (ص31، 32).

(4) انظر: أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ (ص215–231).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتضح مما سبق عناية العرب بالخطب، ولعنايتهم بها سنّوا لها سننًا وعادات، والتصقت عندهم بالرياسة والوفادة، فالخطابة لازمت الجاهليين في جُلّ وقائعهم ومناسباتهم، ولم تكن أقلَّ شأنًا من الشعر.

ثانيًا: منزلة الخطابة في الإسلام.

بلغت الخطابة مع نهاية العصر الجاهلي منزلة مرموقة، وتفوقت في مناحٍ عديدة، محققة الغاية منها، ونزلت عند أصحابها منزلة عزيزة، وبقيت محتفظة بسماتها مع دخول العهد الإسلامي، بل وزادت الحاجة للخطابة أكثر من الشعر، إذ إنَّ الحدث العظيم المتمثل بنزول الوحي من السماء، إيذاناً ببدء حقبة جديدة، كان بحاجة للخطابة لإقناع العرب بهذا الدين الجديد، بالأدلة والبراهين السماوية، وبما عهدوه على الرسول –صلّى الله عليه وسلّم– قبل البعثة من صدق الحديث، فعندما نزلَ قوله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ {الحجر:94}، بدأ طور الخطابة الإسلامية، فدعا قومه وهو على الصفا ثم قال: "أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبًا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"[1]، والحقيقة أنَّ الخطابة كانت أداةً رئيسةً للدعوة إلى الدين الإسلامي، وهذا الأمر زاد من منزلة الخطابة، فهو شرف لم يحزْه فنٌ آخر، "ثمّ ورثها من بعده –صلّى الله عليه وسلّم– خلفاؤه الراشدون –رضي الله عنهم– وهم أركان البلاغة، وسادات الفصاحة، فمن بعدهم من ملوك بني أمية وعمالهم إلا قليلا ممن أترفوا فعجزوا عنها وكانوا يستخلِفون فيها"[2].

وكما كانت الخطابة في الجاهلية بالرياسة ألصق، فإنَّها بالإسلام أصبحت فرضًا يؤدى في أيام الجُمع، ومنبرًا يدعو إلى التوحيد، وسنة عن النبي محمد –صلّى الله عليه وسلّم– في مناسبات دينية أخرى، الأمر الذي رفع من شأنها أكثر إذ التأكيد عليها جاء من الشرع الحنيف.

والذي رَفَعَ –أيضًا– من منزلة الخطابة، ضرورة الاستشهاد بآيات القرآن الكريم في نص الخطبة، فإذا كان الخطيب الإسلامي هو نفسه من عاش قبل البعثة المحمدية، وقد امتلك زمام الفصاحة والبيان، وتمكن من فنون القول، فإنَّ القرآنَ الكريم الذي أعجز ببيانه أصحاب البيان، قد أصبح المادة الرئيسة في الخطب، من ناحية أخرى فهو أقدر على

---

(1) انظر: محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب (ص24).

(2) المرجع السابق، ص24.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التأثير والإقناع، كونه حقيقة ربانية من الخالق عزَّ وجل، ولما يمتلكه من سحر يملك العقول والقلوب، "فإن ما جاء في القرآن الحكيم من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد على الأسلوب البالغ حد الإعجاز وما كان له من التأثير في القلوب والأخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن في أساليب الوعظ الخطابي عند حلول الأزمات...حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم يدفع بالخطبة الواحدة من المُلمات ما لا يُدفع بالبيض المرهفات"[1].

ولم يأتِ الإسلامُ ليسلب العرب ما أبدعوا فيه، ويلغي تراثهم، بل حفظ لهم كل القيم والمثل العليا، إذ جاء متممًا لمكارم الأخلاق، فنرى كثيرًا من عادات الجاهليين في الخطابة قد أقرّها الإسلام[2]، وبالمقابل "قضى على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام، فقضت على التفاخر بالأنساب، والاعتداد بالأحساب، والدعوة إلى ظلم الآخرين...، والفخر بالجاهلية والطيش"[3]، وهكذا ارتفعت منزلة الخطابة من الناحيتين الأدبية والأخلاقية.

(1) انظر: محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب (ص27).

(2) انظر: أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها في أزهر عصورها عند العرب (ص192).

(3) أحمد، دراسات في أدب ونصوص العصرين الأموي (ص60).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثالث: بناء الخطبة في الموروث النقدي.

بدايةً لا بد من تحديد نوع البناء الذي تقوم عليه الخطبة، وهو بناء يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسة: المقدمة، الموضوع، والخاتمة، وهذا التحديد للفصل بين البنيتين الداخلية والخارجية.

لم يحدد النقد العربي الأجزاء التي تكون الخطبة فيه بناءً متكاملاً، كما حددها النقد اليوناني في كتاب الخطابة لأرسطو[1]، الذي فصّل فيه أجزاء الخطبة إلى أربعة، وسماها: المقدمة، والعرض، والتدليل ثمّ الخاتمة، وأحيانًا خمسة أجزاء بإضافة التفنيد، ووضع الشروط التي ينبغي للخطيب أنْ يراعيها في كل جزء من أجزاء الخطبة؛ كي تحقق الهدف الذي من أجله وجدت الخطبة.

أمّا العرب الذين تأخروا عن عهد أرسطو، فلا نجد في نقدهم التأثر بكتاب الخطابة، فهم لم يحددوا أجزاء الخطبة، ولكنَّهم تحدثوا عما ينبغي مراعاته في الخطبة، وما يستحسن أداؤه، وأمور حذروا الخطيب من الوقوع فيها، فنجد أنَّ ما لاحظوه حول هذا الفن النثري يتعلق بصورة غير مباشرة بأجزاء الخطبة، فهم لم يعرفوا المقدمة كمفهوم، ولكنَّهم فقهوا أفضل الطرق لأدائها، فتحدثوا عن (حسن الابتداءات)، أو(براعة الاستهلال)، وأرادوا به "أنْ يأتيَ الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببيت أو قرينة تدلّ على مراده في القصيدة أو الرسالة أو مُعظَمِ مراده"[2].

وعلى أيِّ حال فإنَّ "حديث النقاد العرب عن بناء الخطبة لم يستغرق كل أجزائها وقد لا يعطي صورة واضحة تعين على تحديد الشكل الذي ينبغي أنْ يكون عليه كل جزء من أجزائها"[3]، ويعزا تفوق اليونان وسبقها في وضع علم الخطابة، الذي يُعنى بدراسة طرق التأثير، ووسائل الإقناع، إلى أنَّ الأثينيين كانوا جميعًا بأمسّ الحاجة للخطابة في كلّ شئون حياتهم، وكانت الدولة تطلب من الأفراد أنْ يتحدثوا عن قضاياهم بخطبةٍ بليغةٍ أمام مؤسساتها، فدعت الحاجة لإنشاء علم الخطابة، ليطلبه الجميع في مدارسهم، أمّا الأدباء العرب فقد برع فيهم ثلة كتبتْ في أصول الخطابة وقوانينها، كعمرو بن عبيد، وبشر بن المعتمر، وثمامة ابن أشرس، وإبراهيم النظّام، والجاحظ، وغيرهم، "غير أنَّ

---

(1) انظر: أرسطوطاليس، الخطابة (ص229).

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (ج133/7).

(3) أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ (ص332).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بحوث أولئك الأدباء لم تُجمع في كتاب مستقل، بل كانت نثيرًا في الكتب، وعلوم اللغة"[1].

وفي العصر الحالي عرّف الإمام محمد أبو زهرة بناء الخطبة بأنَّه "تنظيم أجزاء الخطبة، وإحكام تركيبها، وربط بعضها ببعض، ووضع أدلتها في شكل منتج" وأطلق على هذا البناء مصطلح (التنسيق)[2]، وفي نهاية المطاف يتفق النقاد العرب على أنَّ الخطبة تُبنى من ثلاثة أجزاء[3]، وهي: المقدمة، العرض، والخاتمة.

المقدمة

الخطيب الناجح مَن يُحسن في تقديم خُطبته، وحريٌّ به أنْ يوظف استراتيجيات المقدمة الفعّالة، ليعطف الأنظار إليه، ويمسك بمجامع القلوب؛ فنجاح التقديم يطبع أثرًا طيبًا في نفس المستمع.

والمقدمة "ما يجعله الخطيب صدر خطبته، ليثير الفكر إليها، وليعطي السامعين صورة إجمالية لها، وليحصر لهم معانيه، وأفكاره في نطاق لا يعدوه، ولا يتجاوزه"[4] وبيّنَ النقادُ أمورًا تتعلق بالمقدمة تجعل الخطبة كالمعدن اللامع؛ ومن جملتها ما علّلَ به ابن الأثير أثر التخيّر في ألفاظ المقدمة، فيقول: "وإنَّما خصت الابتداءات بالاختيار لأنَّها أول ما يطرقُ السمعَ من الكلام؛ فإذا كان الابتداء لائقًا بالمعنى الوارد بعده توفَّرت الدواعي على استماعه"[5]، وقصد ابن الأثير بالاختيار "أنْ يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالًا على المعنى المقصود من ذلك الكلام: إنْ كان فتحًا ففتحًا، وإنْ كان هناءً فهناء، أو كان عزاءً فعزاء، ... وفائدته أنْ يُعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ولِمَ هذا النوع؟"[6]، فمن غير المعقول ذكر قرينة تدل على غير ما سيذهب إليه الخطيب في موضوع الخُطبة، فهذا أدعى إلى تنبيه السامع لصلب الموضوع، ويضعه على أهبة الاستعداد لتلقي ما يهمه، ويوافقُ رأيُ ابن الأثير ما ذهب إليه الجاحظ أثناء تفسيره قول

(1) أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها، في أزهر عصورها عند العرب (ص12).
(2) المرجع السابق، ص78.
(3) انظر: أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها، في أزهر عصورها عند العرب (ص78)، وأبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ (ص233).
(4) أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها، في أزهر عصورها عند العرب (ص79).
(5) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (ج224/2).
(6) المرجع السابق، ج223/2.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ابن المقفع في ذات السياق: "وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أنَّ خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته"[1]، فمن غير اللائق افتتاح خطبة النكاح –وهو مقام فرح– برثاء مَن ماتوا، فلكلّ مقامٍ مقال.

ودعا النقادُ العرب الخطباء إلى افتتاح خطبهم بالتحميد، والتمجيد، والصلاة على نبي الله محمد –صلى الله عليه وسلم– وتوشيحها بآيات القرآن الكريم، فهذا مما يزيد الخطبة بهاءً ورونقًا، وأحسب أنَّ ما يُصدّرُ بالشرف لا يأتي بعده إلا الكلام الماتع النافع، ذو البال، فخطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين بإحسان "ما زالوا يسمّون الخطبة التي لم تُبتدأ بالتحميد، وتُستفتح بالتمجيد: البتراء، ويسمّون التي لم تُوشح بالقرآن، وتُزين بالصلاة على النبي –صلّى الله عليه وسلّم– الشوهاء"[2].

بل إنَّ التقديم بالحمد والثناء على الله –سبحانه– والصلاة والسلام على رسوله، أصبح سنة متبعة في افتتاح الخطب؛ ولكن إذا ارتقت صيغة هذه المقدمة لمنزلة السنة، لفضلها ولشرف مَن سنّها، وأصبحت بمنزلة الثابت، لماذا عدها النقاد من المقدمات؟، فالباحث يرى أنْ تكون هذه الصيغة شرطًا لتمام الخطبة وحسنها، وأنْ تُصنف على أنَّها (مقدمة المقدمة)، وأنْ تكون المقدمة تاليةً لها إذا ذكرت هذه الصيغة، فهذه الصيغة لا تُنبئ السامع بموضوع الخطبة، وإنَّه لمن المستحسن أنْ تتنوع المقدمات، وألا نحصرها في صيغة واحدة.

وتنوعت مقدمات الخطب، فمنها ما تقدم بالشعر، أو الحكمة، وكذلك بتوعد أو تهديد المخطوبين، وبالذمّ والمدح[3]، وقد تميّز الحجّاج بن يوسف الثقفي بالمقدمات التي شذّت عن السنة المتبعة، واشتهر عنه الخطبة التي قدمها ببيت الشعر:

" أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضَع الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

يأهلَ الكوفةِ أما واللهِ إنِّي لأَحملُ الشّرَ بِحَملهِ وأَحْذُوهُ بِنَعلهِ وأَجْزِيهِ بِمِثْلِه".

يرى شوقي ضيف في تمايز هذه الخطبة بالمقدمة الشعرية أنَّها: "تصور فصاحته وبلاغته وحفظه للشعر الغريب، إذ اتخذه مقدمة لكلامه، و كأنَّما يجعله فاتحة موسيقية

(1) الجاحظ، البيان والتبيين (ص76).

(2) المرجع السابق (ص215).

(3) انظر: أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ (ص235).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

له وهي فاتحة يتبدَّى فيها، ويطلب التشبه بالبدو لا في لغته فحسب، بل –أيضًا– في ثيابه وملبسه، حتى يغرب على السامعين و يروعهم"[1].

وقد يتخلى الخطيب عن المقدمة ويباشر بالموضوع، وللحجاج خطب أسقط فيها المقدمة، وبدأها بتقريع العراقيين: "يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَبْطَنَكُمْ، فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالدَّمَ، وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامِعَ، وَالْأَطْرَافَ، والأَعْضَاءَ والشِّغَاف، ثُمَّ أَفْضَى إلى المِخَاخِ والأَصْمَاخِ، ثُمَّ ارتفع فَعَشَّشَ، ثُمَّ بَاضَ وَفَرَّخَ ..."[2].

والإمام محمد أبو زهرة وضع ثلاث استراتيجيات للمقدمة، تساعد في نجاح الخطبة، ويوظفها الخطيب جميعها أو بعضها حسب تقديره للموقف، فأولها: حسن الافتتاح لإثارة الفكر للخطبة، وهذه تتعدد مناهجها عند الخطباء حسب تقديرهم للموقف، ومنها ما ذكر بالأسطر السابقة؛ وثانيها: بيان المقصد لإعطاء صورة إجمالية عن الموضوع، ليهيئ الأذهان لتلقيه؛ والثالثة: تقسيم الخطاب لحصر معاني الخطبة، إذا كانت واسعة الأطراف، وكثيرة الشعب، ويذكر الإمام أبو زهرة فوائد هذه الاستراتيجيات في كتابه[3]، والحق أنَّ هذا يشير إلى فهم عميق من الإمام أبو زهرة بأهمية المقدمة جزءًا أصيلاً لبناء الخطبة.

الموضوع

هو الفضاء الذي تنتهي إليه المقدمة، وبه يعرض الخطيب أفكار خطبته الرئيسة، موضحًا إيّاها بالشرح بأسلوب بليغ، حيث الإطناب في موضعه، والايجاز في موضعه، مستخدمًا أدوات الإقناع التي ترسِّخ رسالة الخطبة في نفس المستمع، ليقتنع بالعمل بمضمونها.

واشترط النقاد في كتب الأدب لعرض موضوع الخطبة شروطًا من شأنها أنْ تجعلها أكثر جدوى وفائدة[4]، ومن هذه الشروط: الوحدة والترتيب والترابط، حيث تكون فقرات الموضوع دالة على مضمون واحد، مرتبة الأفكار متسلسلة، وأنْ تكون الفقرات اللاحقة متصلة موضوعيًا بالسابقة، ويستدل ابن الأثير على هذا الشرط بأسلوب القرآن

---

(1) ضيف، الفن و مذهبه في النثر العربي (ص82–83).

(2) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج279/2).

(3) انظر: أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها، في أزهر عصورها عند العرب (ص79).

(4) انظر: أبو علي، "نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ" (ص236).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكريم، في قول الله –تعالى–: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ(52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(53)﴾. [الصَّفات].

"فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض؛ فلا تُفْهَم كل واحدة منهنّ إلا بالتي تليها"[1]، ويشترط الوضوح، فالخطبة تحمل رسائل للمستمعين فلا بد من جلاء معانيها، لضمان تلقيهم المعنى المقصود، دون جهد في التأويل، أو تلبس في المعاني التي تحملها الألفاظ، "وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع"[2]، وشروط أخرى كإصابة المعنى مباشرة دون تأجيل، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، والمساواة بين منزلة اللفظ ومنزلة المعنى.

ولأنّ المراد من الخطبة الإقناع والتأثير، فالمطلوب حشد أدواتهما عند عرض الموضوع، ومن أهم هذه الوسائل التي تنبه إليها الخطباء والنقاد العرب: الإقناع العقلي بقوة الأدلة المنطقية والعلمية، والتأثير العاطفي، فيضربون وتر المشاعر والأحاسيس لكي ينزلوا الظن منزلة اليقين، وأسلوب الاستدراج في التأثير والتشويق، والاعتماد على صدق المنطق والانفعال والتأثر بما يدعوا إليه الخطيب، ومن وسائل الإقناع والتأثير: المغالطات والإنكار، ورد الحجة على الخصم[3]، وأعلى رتب البلاغة عند النقاد "أنْ يحتجّ –الخطيب– للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود، وللمحمود حتى يصيّره في صورة المذموم"[4].

---

(1) ابن الأثير، المثل السائر (ج2/324).

(2) الجاحظ، البيان والتبيين (ص54).

(3) انظر: أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ (ص239،238).

(4) العسكري، كتاب الصناعتين (ص64).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخاتمة

كما أنَّ المقدمة هي أول ما يطرق الأسماع، فوجب العناية بها لتهيئة النفوس لاستقبال موضوع الخطبة، كذلك فإنَّ الخاتمة هي آخر ما يطرق الأسماع نفسها، فكانت العناية بها أجدر لتمكين أفكار الخطبة في النفوس وتثبيتها، وهي أعظم خطرًا من غيرها لأنَّها تمثل لحظة هبوط الطيار بسلام على أرض المطار.

فعلى الخطيب أنْ ينتهي بأحسن خاتمة "فإنَّها آخر ما يبقى في الأسماع، ولأنَّها ربما حُفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فيجب أنْ يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها"[1]، وقد سلك الخطباء في سبيل ذلك طرقًا متعددة، كأنْ تُختم الخطبة بتلخيص الأفكار البارزة والتأكيد على أهميتها، أو أنْ يختمها بآية قرآنية أو أبيات شعر، تناسب مضمون الخطبة، ويكون الختام بالاستغفار والدعاء[2].

ويجدر بالخطيب أنْ يهتم بكلّ جزء من مبنى الخطبة على وجه خاص، وأنْ يعي بأنَّ لكلّ جزء صناعة معينة مغايرة عن بقية الأجزاء، فإنَّ كل الأجزاء التي تختلف بطرق الأداء يجب أنْ تخدم الفكرة الرئيسة في الخطبة.

---

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير (ص616).

(2) انظر: أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ (ص241،240).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثاني

أسلوبية الدوال (المفردات)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثاني: أسلوبية الدوال (المفردات)

المبحث الأول: الأسلوبية الصوتية

مدحت العرب في الخطيب جهارةَ الصوت واتساعَ الشدقين، ويصفون الخطيب الفذ بالمِصْقَع[1]، وإلى جانب العادات الصوتية التي حبذتها العرب، فقد انتفع الخطيب بالقيمة الدلالية لأصوات العربية، لخدمة الهدف الرئيس من الخطبة وهو التأثير على السامعين وسوقهم إلى اتباع دعوة الخطيب.

يذهب ابن جني إلى أنَّ الدلالة الصوتية لهي أقوى الدلالات في الكلمة العربية حيث يقول: "اعلم أن كل واحد من هذه الدلالات معتد مراعى مؤثر، إلا أنّها في القوة والضعف على ثلاث مراتب، فأقواهنّ الدلالة اللفظية ثم تليها الصناعية، ثم تليها المعنوية"[2].

وعليه فإنَّ محور اهتمامنا بهذا الجزء من الدراسة هو الأصوات والايقاع، والعلاقة بين الصوت والمعنى، ومدى قدرتها على التأثير بالأحاسيس، فالأسلوبية الصوتية "تسعى إلى دراسة مواطن الجمال وطريقة تأثيرها"[3]، وأجاد الدكتور محمد الضالع –أستاذ علوم الصوتيات– بإيجاد مقابل عربي لمصطلح الأسلوبية الصوتية (phonostylistices) الغربي وهو (علم الجمال الصوتي)[4]، حيث إنَّ النصوص الأدبية التي هي محط أنظار الدارسين غنية بالجماليات الصوتية.

والأسلوبية الصوتية تعنى بطرق أداء الكلام، وقدرة الأديب على اختيار ألفاظ تحمل أصواتها القدرة على تمثيل المعنى، وتأكيده في نفس المتلقي، وتساعد على تجسيد اللفظة في المخيلة، كأنَّ مدلولها نصب الأعين، فتصبح أقرب فهمًا، وأقوى وقعًا، وهذا يتبعه التأثير والإقناع.

والأداء الصوتي الجيد الذي يقود إلى الاندماج في النص الأدبي، يشبه اندماج البشر بألوان الموسيقى المختلفة، التي يوصف بعضها كعلاجات نفسية، وأخرى لها

---

(1) هُوَ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ، انظر: ابن منظور، لسان العرب (صقع)(ج8\203).

(2) ابن جني، الخصائص (ج3/98).

(3) الضالع، الأسلوبية الصوتية (ص18).

(4) انظر: الضالع، الأسلوبية الصوتية (ص15).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صخب يُمارِسُ على وقْعها الرياضيُ تمارينَه، وعليه فإنَّ الخطيب الماهر ينتقي للمخطوبين ما يناسب حالهم من الألفاظ ذات الأصوات الدالة.

ومن خلال بعض الخطب المنقولة عن الحجّاج ستبين الدراسة مدى توظيف الخطيب العربي لألفاظ لغته مستثمراً جرسها الموسيقي، ودلالتها الصوتية، لتؤدي المعاني المرجو إقرارها في نفس السامع لتخدم المقام الذي قيلت فيه الخطبة، وسنتعرف على قدرة الحجّاج لتسخير طبقات الصوت المختلفة التي تعكس شخصيته الصارمة مع مراعاة حال المخطوبين.

سنتعرف على طبقة الصوت في خطبة الحجّاج بعد مقتل أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير رضي الله عنه، بعد مواجهة حاسمة مع جيش بني أمية بقيادة والِيهم على الحجاز –الحجّاج بن يوسف–، في مكة المكرمة؛ فبعد هذه الفاجعة المتمثلة بقتل حَبر من أحبار الأمة الإسلامية، ارتجت مكة بالبكاء على ابن الزبير؛ فعاجل الحجّاج الناس بخطبة مفحمة سريعة تمتص غضب المسلمين على رجل " تكاد تجمع المصادر على أن جميع الأمصار قد أطبقت على بيعته خليفة للمسلمين"[1]، فخطب فيهم:

"أَلَا إنّ ابن الزبير كان من أحبارِ هذه الأمّة، حتّى رغب في الخلافة ونازعَ فيها، وخلعَ طاعةَ الله، واستكنَّ بحرمِ الله، ولو كانَ شيءٌ مانعًا للعصاة، لمنعَ آدمَ حُرْمةُ الجنّة؛ لأنّ اللهَ تعالى خلَقَه بيده، وأَسْجَدَ له ملائكتَه، وأباحَهُ جنَّتَهُ، فلمّا عصاهُ أخرجَهُ مِنها بِخَطِيئته، وآدمُ على الله أكرمُ من ابن الزبير، والجنّةُ أعظمُ حُرْمةً من الكعبة"[2].

استعظم الحجاج حنق المسلمين على قاتل أمير المؤمنين، وخشي من ثورة أتباعه في الأمصار، فأراد أن يستل سخيمة قلوبهم ويسترضي نفوسهم الثائرة، فأقر بفضل ابن الزبير، واستفتح خطبته بالثناء عليه بقوله: "أَلَا إنّ ابن الزبير كان من أحبارِ هذه الأمّة"، ثم بين سبب قتاله له، واستشهد بحرمة الجنة التي لم تمنع آدم من الخروج منها.

وخطبته لأهل الحجاز لا تجري على عادته مع أهل العراق بالتهديد والوعيد ورميهم بأقذع الأوصاف، فالحكمة تقتضي أسلوبًا مغايرًا، فجاءت أصوات ألفاظه دون الشديدة بحيث يستوعب صدمة الحجازيين، الذين فيهم كبار صحابة الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وتابعيهم، وفقهاء وعلماء المسلمين، وهم مغايرون لأهل العراق الذين أوغلوا

(1) الصَّلَّابي، خلافة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه (ص64).
(2) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج273/2).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في الفتن، وفوق الرخوة لتناسب قوة شخصيته ويدعم حجته ودليله بصوت عال مسموع، وإلا لظهر كالمتردد.

خرجت خطبة الحجّاج بعد مقتل عبدالله بن الزبير عمّا ألفناه من طبيعة شخصيته القاسية، ولسانه الحاد، فلا نكاد نسمع في كلامه الموجه لأهل الحجاز ضجيجًا ولا قعقعة مقارنة بخطابه لأهل الكوفة حين وُليَ عليهم، فانتقى لهم من الألفاظ ما كانت حروفها مستعلية شديدة مثل: (خرّاج، الخوف، أخلق، لصاحبها، عصلبي، أصلبها، يصنعون، صفرة، أضع، وضم، أوضعتم، اضجعتم، الضلال، لأضربنكم، ضرب، أمضيت، غنم، يغمز، كتغماز، غرائب، رغدا، طلاع، قطافها، حطم، حطم، طالما، مطمئنة، أعطياتكم، قد ، سواق، ساقها، القوس، العراق، يقعقع، مراقد، أخلق، أنظر، ظهر، الدماء، الشدّ، فاشتدّي، الدويّ ، فشدّوا، فجدّوا، عردّ، أشدّ ..)[1]، فكأنه يضع أهل العراق في ساحة المعركة وهولها بأصوات الخطبة، فأصوات ألفاظ الخطبة تقدم للسامع دلالات وصورًا إيحائية عن الرسائل الموجهة إليهم، وهذا ما أكد عليه الدرس الصوتي الحديث من "الربط بين إيقاع اللفظ ومدلوله وصوره الإيحائية"[2]، أما الحال عند أهل الحجاز فمختلف تمامًا، فلا العراقيون أصحاب الملل والشيع والمؤامرات كالحجازيين، ولا خلافهم السياسي مع الأمويين كالخلاف القائم مع عبدالله بن الزبير، فابن الزبير أمير للمؤمنين وصحابي جليل، وله أتباع في الأمصار، والحجازيون أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلّم– وأمنة الأمة، فتطلب الأمر من الحجّاج أن يرفق بهم، وأن يأخذهم بالحجة والبرهان، ليستميل قلوبهم، ويستدر مباركتهم للدولة الأموية، وأسلوب الإقناع بالدليل هو مخاطبة للعقل، ورزانة الصوت واعتداله هو مفتاح لنفاذ الدليل للعقول.

وأصوات الخطبة جاءت معتدلة من أولها لآخرها، فعند إحصاء الصوامت في الخطبة نجد أنَّ خمسةً وخمسين منها شديدة، ويقابلها اثنان وخمسون من الصوامت الرخوة، ويرجح كفة هذا الاعتدال الصوامت المتوسطة –بين الشديدة والرخوة– فعددها اثنان وتسعون صامتًا، وهذا يمثل سياسة المد والجزر المناسبة لمقام الخطبة، وهذا التوازن بين الصفات الخلافية يعكس الجو العام المعتدل للخطبة، والذي يعكس صورة المعاملة الخاصة لأهل الحجاز، "فالصفات الخلافية للحروف تكسبها قيمًا تعبيرية"[3].

---

(1) انظر: صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ص274).

(2) أبو ندى، طبقات النص (ص11).

(3) هادف، حوليات التراث (ص124).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان الحجّاج يتعمد أن يُسمع صوته للجميع، فلهذا لم تكن الأصوات الشديدة غالبة على أصوات خطبته، مع أهميتها لتقوية بعض المعاني، فالصوامت الشديدة هي أقل الأصوات في نسبة الوضوح السمعي، لأنَّها "أقل الأصوات الساكنة طولا"[1] في الزمن الذي يستغرقه نطقها.

وكانت أصوات الاستعلاء وهي نفسها المفخمة من أقل الأصوات دورانًا، في الخطبة فأكثر حروفها تكرر خمس مرات وهو الخاء، والبقية تكررت ما بين المرتين والمرة الواحدة لكل منها، مع اختفاء حرف الضاد، والحروف المستعلية يقول عنها ابن الجزري: "الاستعلاء من صفات القوة وهي سبعة يجمعها قولك: قط خص ضغط وهي التفخيم على الصواب"[2]، وقلة دوران هذه الحروف في الخطبة يسير مع السياسة العامة لها، ونجد أنَّ الكلمات التي شكلتها بعض حروف الاستعلاء (رغب، الخلافة، خلع، طاعة، للعصاة، خلقه، عصاه، أخرجه خطيئته، أعظم) حملت المعاني التي دارت حولها المعركة مع ابن الزبير، فكأنّ الحجّاج أراد أن ينبه الأسماع لعظم (الرغبة) عن (الطاعة) لبني أمية، ومنازعتهم (الخلافة)، و(خلع) بيعتهم، "فالصوت في معظم حالات لغتنا هو مفتاح سريع الدوران لوضوح الرؤية من وراء المسموع"[3].

وإذا لاحظنا أكثر الحروف تكرارًا في الخطبة لوجدناها أكثر الصوامت في نسبة الوضوح السمعي وفقًا للمدرج الذي وضعه الدكتور رمضان عبدالتواب[4]، فأكثر الحروف ورودًا في الخطبة هو حرف اللام تكرر (29 مرة)، ويأتي في الدرجة الثالثة بعد الأصوات الصائتة مباشرة، وفي الدرجة نفسها يأتي صوت (الراء) الذي تكرر تسع مرات، وفي الدرجة الرابعة الحروف الأنفية (النون) و(الميم) وقد تكرر الأول خمسًا وعشرين مرة، والثاني ثماني عشرة مرة، و(اللام) و(الراء) و(الميم) و(النون) هي من الأصوات المجهورة التي كانت أكثر من المهموسة في الخطبة، ويعود السبب في الوضوح السمعي لهذه السواكن إلى طول الصوت، فالزمن الذي يستغرقه النطق بهذه الأصوات أطول من غيره، وايضاح الخطيب لأصوات كلماته يتناسب مع عادات العرب وحبهم لجهارة الصوت،

---

(1) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية (ص81).

(2) أبو ندى، طبقات النص (ص10).

(3) المرجع السابق ص10.

(4) انظر: عبدالجليل، الأصوات اللغوية (ص194).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويلائم شخصية الحجّاج القوية، حيث أراد أن يجهر بأدلته ويظهرها على الحجازيين دون تردد، فالشجاع من يصدع بحقه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النظام المقطعي للخطبة:

المقطع هو الوحدة الأولية لتركيب الكلمة، وبه تأتلف الفونيمات[1]، فهو "مزيج من صامت وحركة، يتفق مع طريقة اللغة في تأليف بنيتها، ويعتمد على الإيقاع التنفسي؛ فكل ضغطة من الحجاب الحاجز على هواء الرئتين يمكن أن تنتج إيقاعًا يعبر عنه مقطع مؤلف في أقل الأحوال من صامت وحركة (ص+ح)"[2]، وهذا المقطع عبارة عن "الوحدة الأساسية التي يظهر بداخلها نشاط الفونيم الوظيفي"[3].

والذي يدعو إلى دراسة مقاطع الخطب عند الحجّاج الحاجة إلى الكشف عن مدى مجاراته للعادات اللغوية الخاصة باللغة العربية، حيث اعتمد الذوق العربي على سهولة النطق، والسعي لإنشاء نصوص ذات جاذبية موسيقية ممثلة للمعاني، وهذا ما بدا جليًا في نظمهم للقصيدة العربية، التي تبرز جماليات النطق العربي بإيقاعها الساحر، وما أكد على جمال الذوق العربي نزول القرآن الكريم بلغتهم معجزًا، ومتحديًا البيان العربي، فكان إيقاع كلماته يأسر الألباب، حتى إنَّه اضطر الوليدَ بن المغيرةِ ليقول لقومه: "فوالله ما منكم رجل أعرف بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزِهِ، وَلَا بِقَصِيدِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُهُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُوَ وَلَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ"[4] اعترافًا من أهل اللغة بإعجاز القرآن لهم، وهذا ما يجده المسلمون وغيرهم من جمال موسيقى القرآن عند سماعهم لتلاوات قرّاء القرآن.

والذي يقف خلف إيقاعية اللغة العربية "أنَّها تقوم على مبدأ المقاطع الصوتية، ومن هنا أتى سحر الكلمة في العربية، وتأثر العرب بالشعر والخطابة وتميز الشعر والنثر لديهم بحركة صوتية ذات قيمة كمية تندرج فيها المقاطع اللفظية"[5].

وتؤدي المقاطع في اللغة وظيفتين: فنية ودلالية، فأما الوظيفة الفنية فتؤديه عبر ما تحدثه من إيقاع لغوي كما وضحنا سابقًا؛ وأما الوظيفة الدلالية فمن خلال اعتماد هذه

---

(1) الفونيم: الفونيم هو أصغر وحدة صوتية تستعمل في بناء الكلام، وتؤثر فيه، بحيث لا يمكن استبدالها بفونيم آخر دون تغير في المعنى.

(2) شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية (ص38).

(3) عبدالجليل، الأصوات اللغوية (ص217).

(4) ابن كثير، البداية والنهاية (ج72/3).

(5) مبروك، من الصوت إلى النص (ص34).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المقاطع على الإيقاع التنفسي، ومن ثمة تتناسب هذه الإيقاعات المقطعية مع الدفقات الشعورية والنفسية[1].

ومن الجدير ذكره قبل الخوض في دلالة المقاطع الصوتية لخطب الحجّاج أنّ المقطع الصوتي لا يحمل دلالة ثابتة في تركيبه تعطي الإيحاءات نفسها في كل نص وجد فيه، فهناك نصوص يختلف أصحابها وموضوعاتها، أو نصوص عديدة لشخص واحد، قد تتشابه فيها المقاطع الصوتية كمًا ونوعًا، ولكنّها تختلف في الموضوع والمناسبة الذي قيلت فيه، فمثلاً تتشابه مقاطع سورتي الكوثر والإخلاص[2] في الكم والنوع على الرغم من اختلاف مناسبة ومعنى كل سورة منهما، فكانت مقاطعهما:

جدول (2.1): إحصائية بالمقاطع الصوتية في سورتي الكوثر والإخلاص

السورة/المقطع	ص ح	ص ح ح	ص ح ص
الكوثر	**10**	**3**	**14**
الإخلاص	**13**	**3**	**14**

ففي هذه الصورة المتكررة في اللغة يستحيل أن تكون دلالة المقطع نفسه واحدة في النصوص المختلفة، ففي الدراسة الصوتية لقصيدة (إيقاعات فاصلة النمل) للشاعر عفيفي مطر التي أجراها الدكتور مراد مبروك في كتابه (من الصوت إلى النص) يقول: "إنَّ غلبة مقطع معين على المقاطع الأخرى بشكل لافت للنظر إنَّما يعبر عن دلالة معينة في النص الشعري...وهذه الدلالة تختلف من سياق لآخر وفقًا لطبيعة القضية المطروحة ولعوامل نفسية واجتماعية ومكانية وزمانية"[3]، وربما يكون هذا غالبًا وليس قاعدة مطردة.

(1) انظر: مبروك، من الصوت إلى النص (ص34).

(2) انظر: قبها، التحليل الصوتيّ للنصّ (ص128و132).

(3) انظر: المرجع السابق ص192.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنواع المقاطع:[1]

1. المقطع الصغير (ص ح)، ويسمى بالمقطع المفتوح open syllable، أو المقطع الحر free syllable، أو المتحرك. ويبدأ بصوت صامت وينتهي بصوت صائت قصير.
2. المقطع المتوسط (ص ح ح) (ص ح ص)، وقد يكون مفتوحًا حيث ينتهي بصوت صائت طويل، أو مغلقًا closed syllable حيث ينتهي بصوت صامت وبدايته صوت صامت.
3. المقطع الكبير (ص ح ح ص) (ص ح ص ص)، وهو من المقاطع المغلقة أو المقفولة يبدأ بصوت صامت أو صوتين صامتين. إنَّ هذا اللون من المقاطع لا يرد إلا في حالة الوقف. أما في تواصل التيار الكلامي فإنَّه يختفي أو يتحلل إلى مقاطع أخرى.

وتصنف المقاطع العربية من حيث معيار القوة والضعف الذي يعتمد على الزمن الذي يستغرقه النطق بلب المقطع (النواة والخاتمة) إلى: المقطع الضعيف، والمقطع القوي[2].

وطول زمن النطق بالمقطع أو قصره يؤشر على دلالة خاصة للنص الذي يحمل هذه المقاطع، وإدراك هذه الدلالة يفهم ضمن السياق الكلي، ومناسبة النص.

جدول (2.2): النظام المقطعي للخطبة:

#	ألا إنّ ابن الزبير كان من أحبارِ هذه الأمّة،																			
صوتي	أَ	لَا	إِنْ	نَبْ	نَزْ	زُ	بَيْ	رِ	كَا	نَ	مِنْ	أَحْ	بَا	رِ	هَا	ذِ	هل	أ	م	
مقطعي	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح		
2	حتّى رغب في الخلافة ونازع فيها،																			

(1) انظر: عبدالجليل، الأصوات اللغوية (ص220).

(2) عجولي، النظام الصوتي ودلالته في سيفيات المتنبي وكافورياته (ص51).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صوتي	حتـ	تى	ر	غ	ب	فل	خ	لا	ف	ت	و	نا	ز	ع	في	ها			
مقطعي	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ح			
3	**وخلع طاعة الله،**																		
صوتي	و	خ	ل	ع	طا	ع	تل	لاه											
مقطعي	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ح ص											
4	**واستكنَّ بحرم الله،**																		
صوتي	**و س**	تـ	كنـ	ن	بـ	ح	ر	مل	لاه										
مقطعي	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ح ص										
5	**ولو كان شيءٌ مانعًا للعصاة،**																		
صوتي	و	لو	كا	ن	شي	عن	ما	ن	عن	لل	ع	صا							
مقطعي	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ح							

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

6	لمنع آدم حرمة الجنّة؛																							
صوتي	ل	م	ن	ع	ء	د	م	حر	م	تل	جن	ن												
مقطعي	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح												
7	لأنّ الله تعالى خلقَه بيده،																							
صوتي	ل	أن	نل	لا	ه	ت	عا	لى	خ	ل	ق	ه	ب	ي	ده									
مقطعي	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ص									
8	وأسجدَ له ملائكتَه،																							
صوتي	و	أس	ج	د	ل	ه	م	لا	ئ	ك	ته													
مقطعي	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ص													
9	وأباحَه جنّتَه؛																							
صوتي	و	أ	با	ح	ه	جن	ن	ته																
مقطعي	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص																

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

10	فلمّا عصاه أخرجه منها بخطيئته،																							
صوتي	ف	لم	ما	ع	صا	ه	أخ	ر	ج	ه	من	ها	ب	خ	طي	ئ	ته							
مقطعي	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص							
11	وآدم على الله أكرم من ابن الزبير،																							
صوتي	و	ءا	د	م	ع	لل	لا	ه	أك	ر	م	م	نب	نز	ز	بير								
مقطعي	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ص								
12	والجنّة أعظم حرمةً من الكعبة																							
صوتي	ول	جن	ن	ة	أع	ظ	م	حر	م	تن	م	نل	كع	ب										
مقطعي	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح										

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جدول(2.3): أنواع المقاطع وعددها في خطبة الحجاز

المقطع	مرات تكراره
ص ح	85
ص ح ص	47
ص ح ح	22
ص ح ح ص	2
المجموع	156

مجموعُ مقاطعِ الخطبةِ مائةٌ وستةٌ وخمسون مقطعًا، تتوزع على المقطع القصير (س ع)، والمقطع المتوسط المغلق (س ع س)، والمتوسط المفتوح (س ع ع)، ومقطعين من الطويل المغلق (ص ح ح ص)، وكان أكثرها تداولًا المقطع القصير بعدد خمسة وثمانين مقطعًا، ثم المقطع المتوسط المغلق بواقع سبعة وأربعين مقطعًا، والأقل وروداً المقطع المتوسط المفتوح فقد تكرر اثنتين وعشرين مرة، ومقطعين من الطويل المغلق عند الوقف، وعليه فإنَّ خطبة الحجّاج جاءت موافقة للنمط العربي، حيث إنَّ المقاطع الثلاثة الأولى "هي الشائعة وهي التي تكون الكثرة الغالبة من الكلام العربي. –والمقطع الطويل المغلق– فقليل الشيوع، ولا يكون إلا في أواخر الكلمات وحين الوقف"[1]، وعلى هذا النمط جاءت مقاطع القرآن الكريم[2].

والقارئُ للخطبةِ يجدُ سلاسةً في التلفظ بكلماتها كأنَّه سيلان الماء، وما إنْ يستفتحَ الخطبةَ إلا ويجدُ لسانَه ينطقُ بآخر كلمة فيها، بجهد عضلي بسيط، ويقفُ خلفَ هذه السهولةِ غلبةُ المقاطع القصيرة، إذ تستحوذُ على أكثر من نصف مجموع مقاطع الخطبة، فمن مميزاتِ المقطعِ القصيرِ أنَّه يستغرقُ زمنًا قصيراً أثناءَ نطقه، فهو مقطع ضعيف يقصر الزمن الذي يستغرقه النطق بلبه، فنجد أن معظم الكلمات يدخل في تكوين مقاطعها المقطع القصير مثل (**ألا**=ص ح/ص ح ح، **إنّ**=ص ح ص/ص ح، **ابن**=ص ح ص/ص ح، **الزّبير**=ص ح ص/ص ح/ص ح ص/ص ح، **كان**=ص ح ح/ص ح،

(1) أنيس، الأصوات اللغوية (ص93).

(2) انظر: إبراهيم، النظام المقطعي ودلالته في سورة البقرة، دراسة صوتية وصفية تحليلية (ص43).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من=ص ح، **أحبار**=ص ح ص/ص ح ح/ص ح، **هذه**=ص ح ح/ص ح/ص ح، **الأمّة**=ص ح ص/ص ح ص/ص ح/ص ح)، فنلاحظ أنها كالجسور التي تختصر الوقت بين المقاطع المتوسطة.

ونلاحظ تكرر توالي المقطع من النوع القصير (ص ح) في الخطبة، "وهذا جائز مستساغ في الكلام العربي"[1]، ووَصْفُ الدكتور إبراهيم أنيس لهذه الظاهرة في اللغة العربية بالـ"مستساغ" يُشعرُ بأنَّ الأمر فيه شيء من الكراهة، وما يؤكد هذا أنه أردف قائلاً أنَّ "اللغة العربية في تطورها تميل إلى التخلص من توالي النوع الأول –ص ح–"[2].

ومن المعلوم أنَّ كل مقطع يحتاج لإنتاجه ضغطة من الحجاب الحاجز على هواء الرئتين، وتوالي المقاطع من النوع القصير يعني توالي ضغطات هذه العضلة في زمن قصير لقصر زمن النطق بهذا المقطع، ويترتب على هذا التوالي اجهاد الجهاز التنفسي، وإرهاق في النطق؛ ووردَ في النص ألفاظ توالى فيها المقطع القصير مثل (رَغِبَ = ص ح/ص ح/ص ح) و(خَلَعَ = ص ح/ص ح/ص ح) وثقل النطق فيها كتثقل الأمويون من مرتكب هذين الفعلين.

وصنّفَ الوَطْوَاط هذه الخطبة في باب (بداهة الأذكياء البديعة وأجوبتهم المفحمة السريعة) في كتابه (غرر الخصائص الواضحة)[3]، فإنّ هذه الخطبةَ مرتجلةٌ، لم يجهز لها الحجّاج مسبقًا، وتبادرتْ معانيها في آن إلقائها كما أخبرت المصادر التاريخية، فقد قيلت مباشرةً بعد أنْ ارتجت مكة بالبكاء على مقتل أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير، وكذلك كلمات الخطبة وما فيها من براهين وإقامة الحجة على الناس كان عرضه سريعًا، وقد وُفقَ الحجّاجُ في بناء عباراتٍ ذاتِ ألفاظٍ يغلبُ المقطعُ القصيرُ على بناءِ مقاطعها، وهو أقصرُ المقاطع زمنًا في النطق.

والمقاطع المتوسطة تقترب من المقطع الصغير من حيث سهولة النطق وسرعة جريانها على اللسان، لتناسب جميعها مقام الخطبة ذات الأجوبة السريعة للحجازيين؛ كذلك تمنح المقاطع المتوسطة الخطبة إيقاعًا جميلاً، وهي نفسها التي تعطي الإيقاع

---

(1) أنيس، الأصوات اللغوية (ص93).

(2) المرجع السابق ص93.

(3) انظر: الوطواط، غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة (ص207).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للقصيدة الشعرية "فتتابع هذه المقاطع بوحداتها الصوتية المتماثلة يشكل إيقاعًا جماليًا في النص الشعري"[1].

والمقاطع المتوسطة تنقسم إلى مغلق ومفتوح، أما المتوسط المغلق (ص ح ص) فيعد تاليًا للمقطع الصغير من حيث سهولة النطق، لأنه ينتهي بصامت تسبقه حركة قصيرة، والصامت أسهل نطقًا من الحركة، وكذلك فإنّ الحركةَ القصيرة أسهل من الحركة الطويلة.

وإزاء هذه الواقعة التي تطلبت من الحجّاج خطبة ليقطع فيها الطريق على أهل الحجاز، ويطفئ غيظهم قبل أنْ يرفعوا شعار الثأر، دفعته حكمته ليحاجج الغاضبين بجملة من البراهين، معتمدًا على ضرب قصة سيدنا آدم مثالاً يقيس عليه ثورة ابن الزبير، واستخدم لذلك العبارات التي تعبر عن حسم الأمر، فجاء المقطع المتوسط المغلق (ص ح ص) "الذي ينقطعُ معه النَّفَسُ، ليعبّرَ، في معرِض التأكيدِ، عن الحزمِ القاطِعِ، والجدِّ الفاصِلِ، الذي لا مجالَ فيه لتهاوٍن، ولا تجوّز"[2].

ومن ثمَّ جاء المقطع المتوسط المفتوح (ص ح ح) منسجمًا مع المقطعين القصير، والمتوسط المغلق، ليمايز طبقات الصوت موسيقيًا، فيطلق العنان للصوت ليعلو بفضل توالي حركتي الصائت القصير، والصائت الطويل، نحو اللذين يسمحان بمدِّ النَفَس معَ الصوت، وهو مقطعٌ يناسب غرض السرعة كسابقيه، وهو مع المقطع المتوسط المغلق يوحيان بالهدوء وثبات الجنان[3] عند الحجّاج أمام معارضيه، كما يتميز هذا المقطع بوضوحه السمعي بفضل حركة الصائت الطويل، فصاحبُ الحقِّ يصدحُ بصوته عاليًا، مدويّا في الأرجاء، وهذه طبيعة الحجّاج الداهية.

وقد نجحت الخطبة باختبار المقاطع الصوتية لأمرين؛ الأمر الأول: أنَّ مقاطع الخطبة جميعها جاءت من المقاطع القصيرة والمتوسطة، عدا مقطعين من الطويل للازمة الوقف، ومحل النجاح هنا أنَّ هذه المقاطع الثلاثة استعملتها العرب لأكثر كلامهم، لأنَّها

---

(1) مبروك، من الصوت إلى النص (ص190).

(2) قبها، التحليل الصوتي للنص (ص97).

(3) انظر: المرجع السابق، ص141.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأسهل نطقًا والأجرى على اللسان، "ولما لها من توافق حركي سريع مع الحالات الشعورية والتنفسية"[1].

أما الأمر الثاني: يتمثل في مجيء خطبته بمقاطع إيقاعية، لارتكازها على المقطع المتوسط الذي تعتمد عليه تفعيلات الشعر، وكانت الإيقاعات ممثلة لروح الألفاظ، ودلالتها.

يروى أنَّ الحجّاج خرج من قصره في اليوم الثالث من توليه إمارة العراق، فسمع تكبيرًا في السوق، فراعَه ذلك، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على نبيه ثم قال:

"يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، وبني اللَّكِيعَة، وعبيد العصا، وأولاد الإماء، والفَقْع بالقَرْقَر، إنِّي سمعت تكبيرًا لا يراد الله به، وإنَّما يراد به الشيطان، ألا إنَّها عَجَاجَة تحتها قصف[2]، وإنَّما مَثَلي ومثلكم ما قال عمرو بن برّاق الهَمْدَانيّ:

وكنتُ إذا قومٌ غَزَوني غَزَوْتُهُمْ فهل أنا في ذا يَا لَهَمْدَانَ ظالمُ!

متى تجمعِ القلبَ الذكيَّ وصارِمًا وأنفًا حَمِيًّاً تَجتنبْك المظالمُ

أما والله لا تَقْرَعُ عَصًا عَصًا إلا جعلتُها كأمس الدَّابرِ"[3].

توعد الحجّاج العراقيين بخطبته الأولى بهم النار والحديد، لِمَا عرفه عنهم من الغدر، وامتهانهم صنعة الفتن، وشرذمة الصف، وعلى هذا بنيت علاقته معهم على الشك بهم، والحذر من دسائسهم، ولهذا وبخهم في خطبة له بعد ثلاثة أيام من مكثه بالكوفة، لسماعه تكبيرهم في السوق، فظن الحجّاج أنَّ الناس أرادوا شرًا، فتصدى لهم بخطبة قصيرة محدودة، عدد لهم خصالهم السيئة، وقلل من شأنهم، وأقذع في شتمهم،

---

(1) قبها، التحليل الصوتي للنص ص32.

(2) اللكيعة: اللئيمة(ج2\837)، الفقع: من الكمأة أردأ أنواعها(ج2\698)؛ القرقر: الأودية والقيعان الأملس الذي لا شجر فيه ولا حجارة، وفي المثل (فقعة بقرقر) يضرب للذليل(ج2\729)، عجاجة: رعاع الناس وغوغاؤهم والغبار المثار(ج2\584)، قصف: الجلبة والإعلان باللهو(ج2\740). انظر: المعجم الوسيط.

(3) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ص278).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ووصف العلاج لمرضهم مستشهدًا بأبيات شعرية، وهو أن يعاجلهم دومًا بضربات استباقية والبقاء على أهبة الاستعداد دوامًا.

وفي خطبة الحجّاج في جموع العراقيين استغل أصوات العربية ذات الوضوح السمعي العالي، ليسمع القاصي والداني منهم، وليصم بجلجلة كلماته جوارحهم عن الفتن، فبدأهم بأداة النداء (يا) التي تستعمل لنداء البعيد، فهي ذات نسبة إسماع عالية بفضل حرف الألف الذي يعد أكثر الأصوات وضوحًا، فبها يتسع الفم عند نطقها، فاستخدام هذه الأداة كأنَّ الحجاج يطلب من الجميع بلا استثناء، القريب والبعيد ليراعي سمعه، ويتخذ ما يلقى عليه على محمل الجد.

وانظر إلى ما يفعله صوت الألف وقد سُبق أو أُلحق بأحد حروف الشدة أو التوسط أو حرف الجيم المزدوج، ففي الكلمات (العراق، الشقاق، النفاق، الأخلاق، وأولاد، الإماء، يراد، يراد، عَجَاجَة، قال، لَهَمْدَانَ، ظالمُ، صارِمًا، المظالمُ)، نجد أنّ الصوت يُمدُ ويرتفع بحرف الألف وينطلق في الأرجاء ثم يغلق بحرف قوي ليؤكد المعنى ويقره في نفس السامع.

وأصوات (اللام والنون والميم) ذات الوضوح السمعي العالي في الأصوات الصوامت، أكثر حروف الخطبة تكرارًا (أهل، أهل، النفاق، مساوئ، الأخلاق، بني، اللَّكيعة، إنِّي، تكبيراً،...، لا، عصاً، عصاً، إلا، جعلتها).

وكذلك حرف العين الرخو كان له حضور فعّال في الخطبة، فهو يشحن الكلمة بصوت عالٍ فيعطيها وَهَجًا يلفت الأسماع، فالحجّاج في استعماله لحرف العين يقترب من صنع البدوي في الصحراء، حين أبدل صوتي الهمزة والحاء بصوت العين رغبة منه بالقوة الإسماعية التي تتطلبها حياة الصحراء الممتدة[1].

ويقول الخليل: "العين والقاف لا تدخلان في بناءٍ إلا حسنتاه، لأنّهما أطلق الحروف وأضْخَمهما جَرْسًا"[2]، (العراق، الشقاق، النفاق، الأخلاق، عبيد العصا، الفقع بالقرقر، سمعت، عجاجة، تجمع القلب، تقرع، عصًا عصا) "فإنّ هذا التكرار للقاف، والمزاوجة بينه وبين العين يخلق الجرس الضاجّ المبلل بالدلالات الفكرية والشعورية،

(1) انظر: عبدالجليل، الأصوات اللغوية (ص133).

(2) الفراهيدي، كتاب العين (ج53/1).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالقيم الصوتية لجَرْس الحروف أو الكلمات، لا تفارق القيمة الفكرية والشعورية المعبر عنها"[1].

و رافقت الخطبة موسيقى داخلية، تمثلت في الكلام المسجوع في أولها فقط (يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق) الذي أتى سمحًا غير متكلَف، والسجع أحد المحسنات اللفظية، "وأفضل السجع ما تساوت فقرهُ"[2] كما في هذا النص، وكذلك من الموسيقى الخارجية تمازج موسيقى الشعر مع أصوات الخطبة فهذا من شأنه أن ينقل المستمع من طبقة صوتية لأخرى، تعمل على شده، وفي هذا "الالتفات الموسيقي" أو "الالتفات الإيقاعي"، تنشيطٌ للأسماع، وكسرٌ لرتابة الكلام[3].

(1) أبو ندى، طبقات النص (ص11).

(2) الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ص440).

(3) أبو ندى، طبقات النص (ص12).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النظام المقطعي للخطبة:

جدول(2.4): النظام المقطعي للخطبة

#																										
1	**يا أهل العراق،**																									
	صوتي	يا	أَهْ	لَلْ	ع	راق																				
	مقطعي	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ح ص																				
2	**يا أهل الشقاق والنفاق،**																									
	صوتي	يا	أهـ	لش	ش	قا	ق	ون	ن	فاق																
	مقطعي	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح ص																
3	**ومساوئ الأخلاق،**																									
	صوتي	و	م	سا	و	ئل	أخ	لاق																		
	مقطعي	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ح ص																		
4	**وبني اللَّكيعة،**																									

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صوتي	و	ب	نل	ل	كي	عه																	
مقطعي	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح																	
5	**وعبيد العصا،**																						
صوتي	و	ع	بي	دل	ع	صا																	
مقطعي	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح																	
6	**وأولاد الإماء،**																						
صوتي	و	أو	لا	دل	إ	ماء																	
مقطعي	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح ص																	
7	**والفقع بالقرقر،**																						
صوتي	ول	فق	ع	بل	قر	قر																	
مقطعي	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ص																	
8	**إنَّي سمعت تكبيرًا لا يراد الله به،**																						

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صوتي	إن	ني	س	مع	ت	تك	بي	رن	لا	ي	را	دل	لا	ه	به					
مقطعي	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ص					
9	**وإنَّما يراد به الشيطان،**																			
صوتي	و	إن	ن	ما	ي	را	د	ب	ه ش	شي	طا ن									
مقطعي	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ح ص									
10	**ألا إنَّها عجاجة تحتها قصف،**																			
صوتي	أ	لا	إن	ن	ها	ع	جا	ج	تن	تح	ت	ها	ق ص ف							
مقطعي	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح ص ص							
11	**وإنَّما مثلي ومثلكم،**																			
صوتي	و	إن	ن	ما	م	ث	لي	و	م	ث	ل	كم								
مقطعي	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ص								

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

12	**ما قال عمرو بن برَّاق الهمداني،**																		
صوتي	ما	قا	ل	عم	ربن	بر	را	قل	ه	م	دا	ني							
مقطعي	ص ح ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص ص	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ص							

13	**وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم**														**فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم!**												
صوتي	و/ كن/ ت/ إ/ ذا/ قو/ من/ غ/ زو/ ني/ غ/ زو/ ت/ هم														ف/ هل/ أ/ نا/ في/ ذا/ يا/ ل/ هم/ دا/ ن/ ظا/ لم												
مقطعي	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح ح	ص ح ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ص

14	**متى تجمع القلب الذكيَّ وصارمًا**														**وأنفًا حميّاً تجتنبك المظالم**												
صوتي	م/ تى/ تج/ م/ عل/ قل/ بذ/ ذ/ كي/ ي/ و/ صا/ ر/ من														و/ أن/ فن/ ح/ مي/ ين/ تج/ ت/ نب/ كل/ م/ ظا/ لم												
مقطعي	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح ص

15	**أما والله لا تقرع عصاً عصاً إلا جعلتها كأمس الدَّابر.**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صوتي	أ	ما	و ل	لا	هـ	لا	تـ ق	ر	ع	ع	صـ ن	ع	صـ ن	إ	لا	ج	ع ل	ت	ها	ك	أم	سـ د	دا	بر
مقطعي	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ص

جدول(2.5): أنواع المقاطع وعددها في خطبة العراق

المقطع	مرات تكراره
ص ح	72
ص ح ص	65
ص ح ح	42
ص ح ح ص	5
ص ح ص ص	2
المجموع	186

كما علمنا سابقًا أن المقاطع الثلاثة الأولى (ص ح/ص ح ص/ص ح ح) هي الأكثر انتشارًا في الكلام العربي، لخفتها على اللسان، ووجودها دلالة على خلو الأصوات من التعقيد والعجمة عند السامع، ولكن وجود أحدها أكثر من الآخر يؤشر على دلالة محمولة في النص، ويكشفها النظام الصوتي، وهذه الدلالة مرتبطة بالقضية المطروحة، وسياق الزمان والمكان المحيط بالخطبة.

أما الزمن الذي ألقيت فيه الخطبة فهو مفاجئ للحجّاج، الذي وجد نفسه في مناسبة تستدعي أنْ يقول ما قاله، فما إن خرج من قصره في الكوفة حتى سمع جلبة التكبير في السوق، واستشعار الخطر الدائم من العراقيين، دفعه ليشكك حتى في التكبير الذي أحدثوه، فباغتهم بخطبة سريعة مرتجلة، ليذَكر العراقيين بخصالهم، ويحطمهم بشتائم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقذعة، ثم يضعهم في صورة الوضع الجديد لإدارة بلادهم، المعتمد على القبضة الحديدية، وعدم الهوادة في استئصال شأفة الفتن.

فجاء المقطع القصير (ص ح) كما هو معتاد في كل كلام غالبًا على مجموع مقاطعه، وتكرر في الخطبة اثنتين وسبعين مرة، فهو سريع النطق ينسجم مع هذه الجولة السريعة للحجّاج، ويقترب منه المقطع المتوسط المغلق (ص ح ص)، الذي تكرر خمساً وستين مرة، بفارق كبير عن نظيره المتوسط المفتوح (ص ح ح) المتكرر اثنتين وأربعين مرة، فالقسوة ظاهرة في ألفاظ الخطبة، فالمقطع المتوسط يختم بصامت يحبس النفس يلائم الحالة الشعورية، فالقطع في النفس يؤكد على تحديد مصير الذين يدعون إلى الشقاق بشكل قاطع لا تراجع عنه.

فلو تأملت مقاطع البيت الشعري الثاني، الذي يحمل الوقاية لداء العراقيين، لوجدت أن المقطع المتوسط المغلق يمثل وحده نصف مقاطع البيت، وبه ينقطع النَفَس نهاية الكلمات الدالة على سياسة الحجّاج، ليقرّها في النفوس ويؤكدها.

جدول(2.6): مقاطع البيت الشعري في الخطبة

متى تجمع القلب الذكيَّ وصارمًا																**وأنفًا حميّاً تجتنبك المظالم**															
م/ تى/ تج/ م/ عل/ قل/ بذ/ ذ/ كي/ ي/ و/ صا/ ر/ من																و/ أن/ فن/ ح/ مي/ ين/ تج/ ت/ نب/ كل/ م/ ظا/ لم															
ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص	ص
ح	ح ح	ح ص	ح	ح ص	ح ص	ح	ح ص	ح ص	ح	ح ص	ح	ح ص	ح ص	ح	ح ص	ح ص	ح	ح ص	ح ص	ح	ح ص	ح ص	ح	ح ص	ح ص	ح	ح ص	ح ص	ح	ح ص	ح ص

أما المقطع المتوسط المفتوح الذي يعطي الصوت انطلاقة مرتفعة، فقد وفر للخطيب ميزة الإسماع الصوتي في أرجاء الكوفة، بفضل توالي الحركات القصيرة والطويلة، ونلاحظ أنَّ حرف النداء (يا) الذي يستعمل لنداء القريب والبعيد، عبارة عن مقطع متوسط مفتوح (يا=ص ح ح).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ودخل هذا المقطع في بناء الكلمات التي دلت على أهل العراق كلهم، مثل (الشقاق/ مساوئ/ أولاد)، فجريان الهواء مع هذا المقطع كأنَّه يعمم الكلمة ليشمل الجميع.

وقد تكرر المقطع الطويل المغلق (ص ح ح ص) خمس مرات في النص، وهذا من أقوى المقاطع في الخطبة، نظرًا لطول المدة التي يستغرقها النطق به مقارنة بمقاطع النص الأخرى، ومثل هذا المقطع لا يظهر إلا في حالات الوقف، ووجوده داخل الكلام فإنَّه يحمل دلالة معينة، نفهمها من الطريقة التي أدى بها الحجّاج خطبته، فهو عبارة عن شحنة صوتية أقوى، عبّر بها عن غضبه، وبه نسبة إسماع أكبر من غيره، وإذا تأملنا الكلمات التي دخل في بنائها المقطع الطويل المغلق (العراق/ النفاق/ الأخلاق/ الإماء/ الشيطان) نجد أنَّها ذات دلالات مشوهة وغير مقبولة عند الحجّاج، فهو أفرغ دفقة شعورية حبيسة في هذه الكلمات.

انمازت خطب الحجّاج بأسلوب صوتي ناجح، استطاع الحجّاج من خلاله تمثيل شخصية العربي الفصيح، الذي اعتمد على حسه اللغوي، وخبرته بالحرف العربي صوتًا ومخرجًا وصفة، فتخير ألفاظه من المترادفات للمعنى الواحد حسب الضرورة التي تقتضيها طبيعة أصوات اللفظة، فإنّ "للصوت سواء كان حرفًا أو حركةً قيمة دلالية، وأن ثمة علاقة طبيعية بين الدال والمدلول، ولكن إدراكها لا يتيسر إلا لمن خبر أصوات العربية، واستحضر خصائصها الطبيعية والوظيفية"[1].

وهذه الخبرة كانت متوفرة لدى الحجّاج، الذي يعد أفصح أهل زمانه، وأرجحهم عقلاً، فتميز أسلوبه الصوتي بقدرة تأثيرية عالية، سلب من خلالها أسماع مَن تلقى خطبه مشافهةً منه، وخبرته بالأصوات العربية جعلته بالضرورة متقنًا لإنتاج الحروف من مخرجها الصحيح وإعطاء كل حرف حقه، فكانت أصوات كلماته لها وقعٌ مؤثرٌ على السامعين، حتى ليخيلُ للواحد منهم صورة الحدث أمامه؛ فقد مكر أهل الكوفة بوالي الدولة الأموية الجديد عليهم واستعدوا ليحصبوه بالحصى، ولكن تساقطت تلك الحصى من أيديهم عند سماعهم خطبة الحجّاج بهم، وكان أول عهدهم به، ففي الخطب الحاسمة التي تتعلق بأمور الدولة الإسلامية وأمنِها كانت "جرس ألفاظه فخمة صيِّنة تخلق جوًا من الشدة والعنف، وتقرع الأسماع كقصف الرعد أو دوي الرياح"[2]، وكذلك الأفعال التي

(1) هادف، الدلالة الصوتية عند ابن جني من خلال كتابه الخصائص (ص132).

(2) أبو ندى، طبقات النص (ص31).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تسير مجرياتها بتؤدة ويسر فإنّ العربي يصفها بلفظة ذات أصوات دالّة، فوفقًا لقوة أو ضعف تدفق الماء، فرق العرب بين النضح والنضخ لعين الماء.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني: الأسلوبية الصرفية

شاع في كلام العرب استعمالهم للكلمات ذات البناء الثلاثي، وهذا ما يقرره سيبويه بأنَّ "ما جاء على ثلاثة أحرف فهو أكثر الكلام في كل شيء من الأسماء والأفعال وغيرهما، مزيداً فيه وغير مزيدٍ فيه،...ثم ما كان على أربعة أحرف بعده، ثم بنات الخمسة"[1].

وصيغ العرب في كلامها تتباين وفقا لمجرى كلامهم ومقاصد أغراضهم، وهذا ما أطلق عليه علماء العربية علم الصرف، الذي يبحث في الصيغ العربية بنائها واشتقاقها ودلالاتها[2].

وعند بحثنا في أسلوب الحجّاج الصرفي، فإنَّنا نستبصر الدلالة الكامنة خلف الأبنية الصرفية المستخدمة في الخطب، علمًا أنَّ "الصرف يبحث دلالة الكلمة وحدها، دون دورها في تركيب معين فهذا دور النحو"[3]، وعندما نلاحظ ظاهرة ما داخل النص، فإنَّ هذه الظاهرة قد تعبر –بشكل غير مقصود– عما يختلج في نفس صاحب النص، فالأسلوب الصرفي نتاج تلاقي الخبرة بمباني الصرف العربية مع أفكار الشخص عن موضوع ما، وهذا التلاقي يستنطق الأديب بكلمات موحية صرفيًا عن الموضوع المطروق.

وفي هذا الجزء من الدراسة سوف يتناول الباحث خطب الحجّاج بن يوسف، للتعرف على الأسلوبية الصرفية لديه؛ وأول هاتين الخطبتين موجهة لأهل العراق يعلن عليهم إشهار سيف القسوة والانتقام لكل من تسول له نفسه مخالفة الدولة الأموية، أو الجري على عادتهم في إفساد الاستقرار؛ والخطبة الثانية موجهة لفريقين من الرعية: أهل الكوفة متوعدًا لهم، وأهل الشام شاكرًا لهم.

أولًا: خطب الحجّاج لمّا قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم فقال:

"أيها الناس: من أعياه داؤه، فعندي دواؤه، ومن استطال أجَلَه، فعلَيَّ أن أُعَجِّلَه، ومن ثقُل عليه رأسُه، وضعتُ عنه ثِقْلَه، ومن استطال ماضِيَ عُمره، قَصَرْتُ عليه باقيه، إن للشيطان طَيْفاً، وللسلطان سَيْفاً، فمن سقُمتْ سريرتُه، صحَّت عُقُوبتُه، ومن وضعه

(1) سيبويه، الكتاب (ج4\229).

(2) انظر: الحديثي، أبنية الصرف في كتاب سيبويه (ص23).

(3) نور الدين، أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب (ص115).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذنبُه، رفعه صَلْبُه، ومن لم تسَعْه العافيةُ، لم تضِقْ عنه الْهَلَكة، ومن سبقته بادِرَة فَمِه، سبق بدنَه بسَفْكِ دمه، إني أنذر ثم لا أنظر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو، إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم، ومن استرخى لببه ساء أدبه، إن الحزم والعزم سلباني سوطي، وأبدلاني به سيفي، فقائمه في يدي، ونجاده في عنقي، وذبابه[1] قلادةٌ لمن عصاني، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه"[2].

الثابت الذي دفع بني أمية لتسليط الحجّاج على أهل العراق، وصفهم بقلة الطاعة وبالشقاق على أولي الرئاسة، وهذا الطبع متجذر فيهم منذ العهد الأول للإسلام، يروى أنَّ رجلاً جاء إلى الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله– عنه يخبره "أَنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ قَدْ حصَّبوا أَمِيرَهُمْ، فَخَرَجَ غَضْبَانَ فصلَّى لَنَا الصَّلاة فَسَهَا فِيهَا حَتَّى جَعَلَ النَّاس يَقُولُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ، فلمَّا سلَّم أَقْبَلَ عَلَى النَّاس فقال: من ههنا مِنْ أَهْلِ الشَّام؟ فَقَامَ رَجُلٌ ثُمَّ قَامَ آخَرُ، ثمَّ قُمْتُ أَنَا ثَالِثًا أَوْ رَابِعًا، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الشَّام اسْتَعِدُّوا لِأَهْلِ الْعِرَاقِ، فإنَّ الشَّيطان قَدْ بَاضَ فِيهِمْ وفرَّخ، اللَّهم إنهم قد لبسوا علي فألبس عَلَيْهِمْ بِالْغُلَامِ الثَّقَفِيِّ يَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَقْبَلُ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَلَا يَتَجَاوَزُ عَنْ مُسِيئِهِمْ"[3].

وقد تداولت الخطبة بين الاسم والفعل، فإذا قمنا بإحصاء لكليهما نجد أن الصيغة الاسمية أكثر من الصيغة الفعلية، فقد بلغت نسبة الأسماء (59%) من صيغ الخطبة، ونسبة الأفعال (41%)، والفرق بينهما ليس شاسعًا، وتفوق أحدهما على الآخر عددًا داخل النص ينبئ عن مقاصد يريدها صاحب النص واقعًا ملموسًا.

وكما هو معلوم أنَّ الأسماء تدل على الأحداث فقط دون أزمانها، وإنَّ اطلاق اسم ما على شيء فهذا يدل على ثبات دلالة الاسم ومعناه على هذا الشيء، فقول الحجّاج "إن للشيطان طَيْفاً، وللسلطان سَيْفاً" يفيد ثبوت الطواف للشيطان، ولكن لو قيل "إنَّ الشيطان طَوَّفَ" فإنَّ هذا القول يفيد ارتباط فعل الطواف بزمن الماضي، "وسر ذلك أنَّ الفعل مقيد بالزمن، فالفعل الماضي مقيد بالزمن الماضي، والمضارع مقيد بزمن الحال أو

(1) ذُبابُ السَّيفِ طَرَفُه المُتَطَرِّفُ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ. ابن منظور، لسان العرب (ذبب)(ج1\383).
(2) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: (ص278).
(3) ابن كثير، البداية والنهاية (ج291/6).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاستقبال في الغالب، في حين أنّ الاسم غير مقيد بزمن من الأزمنة فهو أشمل وأعم وأثبت"[1].

وإنَّ نسبة الاسم (سيفًا) إلى (السلطان) يدل على أمر ثابت وهو امتلاك صاحب السلطة للسيف أحد أدوات السلطان لضبط الدولة وردع الخارجين على القانون، وهذا الثبوت أقره خلو الاسم من الزمن الذي يشير إلى التجدد والحدوث في أحد الأزمنة، فلو قلنا (إنَّ السلطان استاف) أي تناول سيفًا في زمن مضى، ولم يستقر في يده ويصبح جزءا من سلطانه، وأنه يحتاج لتجديد امتلاكه للسيف بتجديد دلالة الفعل، "فالاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها، فإذا قلت (زيدٌ منطلق) لم يفد إلا اسناد الانطلاق إلى زيد. وأما الفعل فله دلالة على الحقيقة وزمانها فإذا قلت: (انطلق زيد) أفاد ثبوت الانطلاق في زمان معين لزيد"[2].

ويمكن القول بأنَّ تفوق حضور الأسماء على الأفعال في خطبة الحجّاج يدل على جوهر المهمة التي أوكلت إليه في تقعيد أسس الخلافة الأموية في العراق وبث الاستقرار فيه، فدلالة الثبوت والاستقرار التي للأسماء تمثل ما يريده الحجّاج في العراق من الاستقرار على أمر جامع، وتوقيف عجلة الفتن التي عبر عنها بالأفعال التي لها دلالة التجدد والحركة، التي قد تتوقف ولا تتجدد وهذا ما عمل عليه الحجّاج أمير العراقَيْن، وكذلك فإنَّ الصيغ الاسمية الدالة على الثبات جعلها الحجّاج وصفًا لأهل العراق لتدل على قناعة راسخة عنده أنّ هذه الأوصاف كبصمة البنان لا تنفك عن أهل العراق.

وعند النظر في أفعال الخطبة نجد أنَّ لكل مجموعة منها، أو لكل فعل دلالته الخاصة حسب الزمن الذي حدث به الفعل؛ وخطبة الحجّاج حملت أبنية الأفعال في أزمانها الماضية والمضارعة.

والفعل الماضي "ما دلَّ على حدوث شيء قبل زمن التكلم"[3] نحو: قرأ وكتب ويدل عليه قبوله علامات التأنيث، مثل: هي قرأتْ وكتبتْ، وتاء الفاعل، مثل: قرأتُ وكتبتُ.

---

(1) السامرائي، معاني الأبنية في العربية (ص9).

(2) الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز (ص79).

(3) الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف (ص20).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمّا المضارع "ما دلَّ على حدوث شيء في زمن التكلم أو بعده، نحو: يقرأ ويكتب، فهو صالح للحال والاستقبال"[1]، وتدخل عليه علامات تدل على الحال، مثل: لام الابتداء و(ما) و(لا) النافيتان، وأخرى تدل على الاستقبال، مثل: السين، سوف، لن، أنْ، وإنْ؛ وعلامة المضارع أن يصح وقوعه بعد (لم)، ولا بد أن يكون مبدوءًا بحرف من حروف "أنيت" وتسمى أحرف المضارعة.

وجاءت أفعال الخطبة كالتالي:

جدول (2.7): أفعال الخطبة

الزمن	الفعل
الماضي	أعياه– استطال– ثَقُل– وضعت– استطال– قصرت– سقُمت– صحَّت– وضَعَه– رفعه– سبقته– سبق– أفسدكم– استرخى– ساء– سلباني– أبدلاني– عصاني– ضربت.
المضارع	أعجِّله– تسعه– تضق– أُنذر– أُنظر– أُحذِّر– أُعذر– أتوعد– أعفو– آمر– يخرج– يخرج– يليه.

هدّد الحجّاج في خطبته العراقيين محذراً من أمراض الفتنة التي أعيتهم، وأنَّ مخالفة الأمير وعصيانه لهو أمرٌ كافٍ لوضع حدٍ لحياة المخالفين؛ لذلك جاءت أزمان أفعال الخطبة تنبئ بانتهاء حقبة زمنية اعتاد الناس فيها على إساءة الأدب مع الأمير المتهاون في ضبط مجريات الحكم، وبدء حقبة جديدة عنوانها سياسة حازمة مع عقوبات رادعة تئد الفتن.

فجاءت الأفعال التي تدل على استباحة العراقيين للفتن وخلقهم للمشكلات تحمل الزمن الماضي، نحو (أعياه، استطال، ثقل، سقمت، ساء، عصاني) وكأنَّ هذه الأفعال انتهت وباتت من الماضي الذي لن يتجدد في ظل الأمير الجديد، وأنَّ الأمور ستذهب للاستقرار كون ارتباط الفتن بالزمن الذي مضى.

(1) الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف (ص20).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعندما أراد الحجّاج أنْ يؤكد جديته في السياسة الجديدة جعل الأفعال التي هدد فيها العراقيين بسفك دمائهم حال غدرهم تدل على الزمن الماضي نحو (وضعت، قصرت، صحَّت، سبق، ضربت) فصارت هذه الأفعال وكأنَّها ناجزة في حقهم، مع أنَّها مجرد تهديد لم ينفذْ بعد، و"قد يستعمل الماضي في مقام المضارع لأغراض منها الإشارة إلى تحقق وقوع الفعل"[1]، والحقيقة أنَّ الحجّاج قد أوقع عقوبات قاسية بعيد خطبته الأولى بالكوفة بعد توليه العراق.

وعندما تكلم الحجّاج عن تحوله لشخصية عنيدة وصلبة نسب هذا التحول للزمن الماضي، عندما قال "إنَّ الحزم والعزم سلباني سَوْطي، وأبدلاني به سيفي، فقائمُه في يدي، ونجاده في عنقي" فهذا يدل من جانب على نشأته وتعوده علي نهج الحزم والعزم، ومن جانب آخر تبنيه خيار إنهاء الأزمات بحد السيف منذ زمن وأنَّه خبير بمثل هكذا أمر.

ولم يتوقف الأمر عند دلالة الفعل الماضي على أنَّ العقوبات الرادعة في حكم المنفذة، وأنَّ حركات التمرد قد توقفت تمامًا، بل جاء الفعل المضارع ليجعل المدة الزمنية لتهديدات الحجّاج متجددة ما استوجب تنفيذ هذا الوعيد، وهذه الأفعال في الخطبة (أعجله، تسعه، تضق، أُنذر، أُحذر، أتوعد، آمر)، هذا "ولا يفيد الاستمرار التجددي إلا إذا كان فعلا مضارعا، ولا يكون هذا إلا في مقامات خاصة تستدعيه، وهي مقامات المدح والفخر والهجاء ونحوها"[2].

ثمّ إنَّ الحجّاج زاوج بين أفعال مضارعة مثبتة وأخرى منفية نحو "إنِّي أنذر ثم لا أنظر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو"، فالمضارعات التي أثبتها أفعال لا تحمل في طياتها أي نوع من التهاون بأمر يمس الدولة، والتي تعكس نهج الحجّاج، والأفعال المضارعة التي نفاها تحمل دلالة الصبر والأناة على العصاة من سكان الدولة، وهذا ما لم يعرفه الحجّاج، فهو أثبت لنفسه القسوة والحزم والعزم منذ نشأته بدلالة الماضي، وأنَّ هذه الصفات متجددة فيه، ونفى عن نفسه المضارع الذي يحمل دلالة الحلم والرحمة مع الخوارج، وهذه الصفات انتهت ولن تتجدد.

---

(1) الصعيدي، البلاغة العالية–علم المعاني (ص59).

(2) المرجع السابق، ص57.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والملاحظ أنَّ جميع أفعال الخطبة مبنية للمعلوم، سواء التي نسب الحجّاج فاعلها إلى نفسه أو نسبها إلى أهل العراق؛ فمن خلال الأفعال التي كان فاعلها الحجّاج مثل (وضعتُ عنه ثقْلَه- قَصَرْتُ عليه باقيه- ضربت عنقه) نرى أنّه يسلط الضوء على نفسه لتظهر صورته واضحة دون مواربة، فهو يهدد بإنزال العقوبة بيده دون خوف، والأفعال التي توجب العقوبة لفاعلها نسبها إلى العراقيين، وكأنَّه قاض قد حدد التهمة وحدد مرتكبها الذي يستحق العقوبة، فهو يضعهم على بينة من أمرهم.

وفي خطبةٍ أخرى للحجّاج قال فيها: "يا أهل الكوفة، إنَّ الفتنة تُلْقَح بالنَّجْوَى[1]، وتُنْتَج بالشكوى، وتحْصَد بالسيف؛ أما والله إنْ أبغضتموني لا تضروني، وإنْ أحببتموني لا تنفعوني، ما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودّتكم، زعمتم أني ساحر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ [طه-69]. وقد أفلحت، وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر؛ فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون؟"

ثمَّ التفت إلى أهل الشام فقال: "لَأَزْوَاجُكم أطيبُ من المسك، ولَأَبناؤكم آنَسُ بالقلب من الولد، وما أنتم إلا كما قال أخو بني ذُبْيَان:

إذا حاولتَ في أسد فُجورًا ... فإني لستُ منك ولستَ مني

همُ دِرْعي التي اسْتَلْأَمت[2] فيها ... إلى يوم النِّسَار وهمْ مِجَني[3]

ثمَّ قال: "بل أنتم يا أهل الشام كما قال الله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ(172)**﴾ [الصَّفات] " ثم نزل[4].

وجّه الحجّاج خطبته لرعيته، فعرّف أهل الكوفة حدودهم، وحدد طبيعة علاقته بهم، وجابههم بالأدلة عن عدم جدوى مخالفتهم له، وكان أهل الشام من ضمن الرعية التي وُجّهت لها الخطبة، فأثنى عليهم وافتخر بهم، تقديرًا لطاعتهم له، ولكن يجب أنْ يُعلم أنَّ

---

(1) النَّجْوَى والنَّجِيُّ: السِّرُّ. ابن منظور، لسان العرب (نجا)(ج15\308).

(2) اللَّأْمَةُ: الدِّرْعُ، وَقَدْ اسْتَلْأَمَ الرجلُ إذا لبِس مَا عِنْدَهُ مِنْ عُدّةٍ رُمْحٍ وَبَيْضَةٍ ومِغْفَر وَسَيْفٍ ونَبْل. لسان العرب (لأم)(ج12\532).

(3) المِجَنُّ: التُّرْسُ. ابن منظور، لسان العرب (جنن)(ج13\94).

(4) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: (ص281).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحجّاج لم يستعد أهل الشام على العراقيين، ولم يميز بين أبناء الدولة، بل "كان شديدًا عليهم، لا يفسح لهم مجال البغي والظلم، وإيذاء أهل العراق"[1].

ظهرت خبرة الحجّاج برعيته ودرايته بخباياهم في أبنية الخطبة، فالقناعة التي اكتسبها الحجّاج عن طبائع أهل العراق وأهل الشام أكدها بالصيغ الاسمية التي بلغت نسبتها (66%)، التي تفوقت كمًا عن نسبة الأفعال التي بلغت (34%)، فكما كانت قناعته راسخة بصفات الفريقين سخَّر الأسماء في الخطبة لتخدم فكرته.

والجزء الأول من الخطبة الذي وجهه لأهل الكوفة كانت الأسماء فيه مساوية للأفعال، فقد أثبت لهم صفات مثل (الفتنة– النجوى– الشكوى)، وهي أسماء توحي دلالتها بطبيعة أهل العراق، أصحاب الفتن التي تحاك في السر، وتنغيصهم على الأمير بالشكوى والتذمر، وقد جاء باسمي فاعل مسبوقيْن بالنفي (ما أنا بالمستوحش– ولا المستريح)، فنفى الحجّاج تطلعه إلى اختلاق المشكلات مع هؤلاء العدوانيين على حد وصفه لهم بالصيغة الاسمية (لعداوتكم)، وأيضًا يشكك بحقيقة المودة التي يبادلونها له بنفيه استراحته لها (ولا المستريح لمودتكم)، وبهذا النفي لاسمي الفاعل يفضح سوء نواياهم، ويظهر احتراسه منهم، واسم الفاعل "أدومُ وأثبتُ من الفعل ولكنه لا يرقى إلى ثبوت الصفة المشبهة"[2].

وإنَّ وجود الصيغ الاسمية في النص تدل على رغبة في الاستقرار، فلذلك وازن الحجّاج بينها وبين الصيغ الفعلية في خطابه مع أهل الكوفة، لتكون –أيضًا– الدلالة العامة توحي بالاضطراب، وأنَّ التجاذبات مستمرة مع أهل الكوفة؛ فوظف الحجّاج الفعل المضارع موحيًا بحالية وتجدد الفعل، ومن هذه المضارعات (تُلْقَح – تُنْتَج – تُحصد) وهي مبنية للمجهول، وأُخفيَ فاعل (تلقح – تنتج) لمعرفة المخاطبين به، ومن ناحية أخرى إهماله وتحقيره، فالحجّاج لا يعبأ بمفتعل الفتن، وأخفى فاعل (تحصد) لمعرفة المخاطبين بصاحب السيف الذي يحصدهم على الدوام؛ وعندما جاء بالفعل المضارع مبنيًا للمعلوم سبَّقه بالنفي (لا تضروني – لا تنفعوني)، مستهزئاً بمشاعر البغض أو المحبة عندهم، وسالبًا لقدرتهم على النفع أو الضر.

(1) طه، العراق في عهد الحجّاج بن يوسف الثقفي (ص205).
(2) السامرائي، معاني الأبنية في العربية (ص41).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعند الانتقال إلى الجزء الأخير في الخطبة الموجه لأهل الشام، نجد أنَّ معظم الصيغ التي تحدث بها معهم هي من الاسمية، واقتصر خطابه معهم على خمس من الصيغ الفعلية، نجدها في الشواهد الشعرية والقرآنية التي استأنس بهما نصرةً للشاميين، والحضور القوي للصيغة الاسمية في هذا الجزء يشعر باطمئنان الحجّاج من أهل الشام، فالصيغة الاسمية تبتعد عن ضجة الحركة، والجلبة التي تحدثها الأفعال، فعلاقة الشاميين بالدولة الأموية مستقرة كالأسماء.

وفي مدحه لأهل الشام استخدم جملتين اسميتين، أثبت لهم فيهما صفتي (الطيبة) و(الأنس) بقوله "لَأَزْوَاجُكم أطيبُ من المسك، ولَأَبناؤكم آنَسُ بالقلب من الولد" فلم يثبت لهم صفات محمودة بدلالة الاسم على الاستقرار فقط، بل قوّى هذا الثبات بأن أسند اسمًا إلى اسم "فالجملة الاسمية موضوعة للإخبار بثبوت المسند للمسند إليه بلا دلالة على تجدد أو استمرار إذا كان خبرها اسمًا فقد يقصد به الدوام والاستمرار الثبوتي بمعونة القرائن"[1]، فالصيغة الاسمية تدل على الثبوت والاستقرار، وإسنادها إلى اسم آخر في الجملة الاسمية يعمل على تقوية هذا الثبوت.

واستفتح الحجّاج كلامه مع أهل الشام بلام التوكيد، التي وقعت في بداية العبارتيْن اللتين أثبت فيهما صفتين من صفات أهل الشام، فاجتماع لام التوكيد، والصيغة الاسمية، والجملة الاسمية، أظهرت صورة أهل الشام المحفورة في ذهن أميرهم الحجّاج؛ وكذلك الأمر في الجملة الاسمية (همُ دِرْعي) التي عبّر فيها عن فخره بهم، وأنَّه يستمد قواه من قوتهم؛ ويبدو أنَّ وصفهم بـ(الدرع) وقّر عليه عناء الإكثار من استخدام الأفعال، فهذه المفردة أوجزت المعاني التي تعبر عنها أفعال القوة والمَنَعَة.

ولشدة إعجابه بأهل الشام جزم بأنَّ الله –تعالى– منحهم النصر والتأييد، وذلك عندما نسب اسم الفاعل (منصورون) إليهم، وقد علمنا أنَّ صيغة اسم الفاعل تعطي دلالة على الثبات أكثر من صيغة الفعل (ينتصرون) على سبيل المثال، فأفاد اسم الفاعل وحده أنَّ النصر حليف الشاميين، لأنَّ للاسم صفة الاستمرار على عكس الفعل الذي يفيد الانتهاء والتجدد، ومن ناحية أخرى عمل وقوع اسم الفاعل في الجملة الاسمية خبرًا على تقويته مرةً أخرى، علاوةً على التأكيد بـ(إنَّ) التي تؤكد وقوع الخبر.

(1) السامرائي، معاني الأبنية في العربية (ص16).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثالث: الانزياح البنائي

الانزياح "خروج عن المألوف أو ما يقتضيه الظاهر، أو هو خروج عن المعيار لغرض قصد إليه المتكلم أو جاء عفو الخاطر، لكنَّه يخدم النص بصورة أو بأخرى وبدرجات متفاوتة"[1].

وتوظيف الأديب لإمكانات اللغة المتاحة، وإتيانه بالجديد الذي لم يسبقه إليه أحد لهو شكل من أشكال الانزياحات، وإذا كان لكل أديب أسلوبه الخاص؛ فيمكن القول: إنَّ كل أسلوب هو انزياح؛ لأنَّ الجديد، والتجديد في الأدب هو الذي يستحق الدراسة والتأمل، ولولا هذا التجديد لما وجدنا فرقًا بين اللغة الأدبية وغير الأدبية، ولما عكفت المدارس على قراءته ونقده، وفي هذا المعنى يقول الشاعر حسان بن ثابت:

لا أَسْرِقُ الشُّعَرَاءَ ما نَطَقُوا بَلْ لا يُوَافِقُ شِعْرَهُمْ شِعْرِي[2]

وإذا كانت اللغة الأدبية قائمة على الانزياح، فإنَّ القارئ يعتمد على ذوقه لاكتشاف هذا الجديد؛ وهذا الذوق تتحدد فاعليته وقدرته بناءً على ذوق المتلقي، وثقافته اللغوية والأدبية، ودرايته باللغة الأدبية، "فالقارئ يمكن أن يستوقفه تعبير ما، يخيل إليه أنَّه خارج عن المألوف بدرجة كافية ليعده انحرافًا، ومن ثم يرى فيه سمة أسلوبية قوية يستدل بها على شعور الكاتب، أو على المعنى الذي يريد أن يثبته في ذهن المتلقي، مع أنَّ قارئًا آخر أو قراء آخرين يمكن أن لا يتفقوا معه في ذلك"[3].

يوجد في حياتنا قواعد عامة لكل شيء وتكون مرجعية للبشر، ولكن يحدث أنْ البعض يشذون عن هذه العموميات في حالات قليلة ومعروفة ولأسباب خاصة بكل حالة، والأدباء يهدفون من خرق قواعد اللغة تحقيق التميز عن سابقيهم، وعلى مستوى القارئ يحرص الأديب على لفت انتباه السامع، والحرص على عدم تسرب الملل إليه، "ومن العلماء من اعتبر أن الانزياح حيلة مقصودة لجذب القارئ"، ومن الأهداف التي يحققها

---

(1) أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق (ص175).

(2) بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت (ص106).

(3) أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق (ص188).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الانزياح البعد الجمالي في الأدب الذي قد لا يتحقق إلا عن طريق الانزياح، ومن ذلك الضرورات الشعرية التي يلجأ إليها الشاعر[1].

وقد عرف المسلمون نمطًا معلومًا في خطبهم ساروا عليه يبدأ بحمد الله والثناء عليه فالصلاة على نبيه، ثم يعرضون موضوع الخطبة مسبوكًا بالآيات القرآنية وأقوال النبي وأشعار العرب فخاتمة الخطبة.

ومن عادات العرب في خطبهم الاعتدال في طولها، وهو ما وصَّى به النبي–صلى الله عليه وسلم– حيث "أمرنا بإطالة الصلاة، وقصر الخطبة، وورد في وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان حين وجهه لفتح الشام قال: إذا وعظت جندك، فأوجز؛ فإنَّ كثير الكلام ينسي بعضه بعضًا"[2]، وغيرها من العادات التي اتبعوها في بناء خطبهم، وأصبحت هذه العادة قاعدة يخرج عليها البعض من الخطباء، وينظر إليها على أنَّها إنزياح عن المألوف.

وبالانتقال إلى عصر بني أمية، يرى الناظر إلى خطبهم أنَّها امتداد للفترة الأولى من عصر صدر الإسلام، من حيث البناء المعماري؛ ولكنَّ المتأمل للخطب السياسية لأمراء بني أمية –والحجّاج أحدهم– يرى أنَّ بعض الخطب بها خروج عن الطور المعروف، فعلى سبيل المثال أسقطوا المقدمات من خطبهم، كخطبة الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان بمكة المكرمة:

"إنّي والله ما أنا بالخليفة المُسْتَضْعف، يعني عثمان، ولا بالخليفة المُدَاهن، يعني معاوية، ولا بالخليفة المأفون، يعني يزيد"[3].

ويبدو أنَّ نوع الخطبة هو الذي شجع الخطباء على الخروج عن المألوف فقد "تطورت الخطابة في عهد بني أمية تطوراً ملموساً، فهي فيما سبق وسيلةٌ من وسائل الإقناع والموعظة والإرشاد، وهي الآن وسيلةُ السيطرة والتعسف والاستبداد، وقد بلغت مع الحجاج بن يوسف أوج العنف والقسوة"[4]، فكما تطورت الغاية من الخطبة، تطورت كذلك طرق أدائها، فأرادوها خطبة دون مقدمات لمباغتة الجمهور بما يرهبهم، وقصّروها حتى

---

(1) انظر: أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق (ص180).

(2) أبو زهرة، الخطابة أُصولها– تاريخها في أزهى عصورها عند العرب (ص221).

(3) ابن عبدربه، العقد الفريد (ج90/4).

(4) الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي: الأدب القديم (ص367)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تحفظ عنهم، وتدوم في وجدانهم كالأمثال؛ وقد لا يكون الخروج على المألوف هو لمجرد الابتداع، ولكن قد لا يجد الخطيب في القياس السائد ما يناسب شخصيته، والموقف الذي يعالجه في خطبته؛ فلذلك يسمح لذوقه أن يرسم الصورة التي يراها أصلح لنفسه؛ وما يمكن أن يحققه بالانزياح ما لن يُحقق بالقياس.

وللحجّاج خطب التزم فيها بسنن السلف، كخطبته في أهل العراق وقد سمع تكبيرًا في السوق فراعه الأمر، فوقف فيهم خطيبًا، واستهل خطبته بحمد الله والثناء عليه، واستشهد لموضوعه بأبيات من الشعر العربي، وختمها بالتهديد.

ومن الخطب التي شكل أسلوب بنائها انزياحاً عما عرفته الخطابة الإسلامية، خطبة له بعد وقعة (دير الجماجم)، وهي مناسبة تحتاج لأسلوب جديد لم يعهده السامعون؛ فجاءت هذه الواقعة عقب تمرد عبدالرحمن بن الأشعث بالجيش الذي بلغ تعداده أربعين ألف مقاتل من أهل البصرة والكوفة، حيث بعثه الحجّاج إلى سجستان لتأديب رتبيل ملك الكرد سنة ثمانين من الهجرة، وكان لهذا التمرد وقع كبير في أرجاء الدولة الأموية التي هدد عرشها للزوال، وكان أحد الحلول السلمية التي اقترحها الخليفة عبدالملك لإسكات هذا التمرد هو استبعاد الحجّاج عن إمارة العراق ليرضي العراقيين الذين ينقمون عليه، ولكنَّ إصرار العراقيين بقيادة ابن الأشعث على خلع الخليفة عبدالملك بن مروان وأميره الحجّاج بن يوسف دفع الأمويين إلى مواجهتهم، وبدأ الفريقان يستعدان للقتال، فاشتبكا في أشهر وقائعهم –التي زادت عن ثمانين موقعة– في دير الجماجم والتي استمرت مائة يوم حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث في الرابع من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين من الهجرة[1].

ويتجلى الانزياح المعماري في خطبة الحجّاج بعد وقعة دير الجماجم، الذي يقول فيها: "يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطَنَكم، فخالطَ اللحم والدم وَالْعَصَبَ، وَالمَسَامِعَ والأطرافَ، والأعضاء و الشَّغَاف[2]، ثم أفضى إلى المِخاخ والأَصْماخ، ثم ارتفع فعشَّشَ، ثم باض وفرَّخ، فَحَشَاكم نفاقًا وشِقَاقًا، وأشعَرَكم خلافًا، اتخذتموه دليلًا تتَّبعونه، وقائِدًا تُطِيعونه، وَمُؤَامَرًا تستشيرونه؛ فكيف تنفعكم تجربة، أو تعِظكم وَقْعة، أو يحجِزكم إسلام، أو ينفعكم بيان؟ ألستم أصحابي بالأَهواز؟ حيث رُمْتُم المكر، وسعيتم بالغَدر، واستجمعتم للكُفْر، وظننتم أن الله يَخْذُل دينهُ وَخِلافته، وأنا أرميكم بطَرْفي، وأنتم تتسَلَّلون لِوَاذًا،

(1) انظر: الصَّلاَّبي، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار (ج1/638-642).

(2) الشَّغَافُ: غِلافُ القَلْب. ابن منظور، لسان العرب(شغف)(ج9\179).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتنهزمون سِرَاعًا؟ ثم يوم الزَّاوية، وما يوم الزَّاوية! بها كان فَشَلكم وتنازُعكم وتخاذلكم، وَبَرَاءَة الله منكم، ونُكُوص وَلِيِّكم عنكم؛ إذ وَلَّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازعِ إلى أعطانها[1]

لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يَلوِي[2] الشيخ على بَنيه، حتى عضَّكم السلاح، وَقَصَمتكم الرماح، ثم يوم دَيْر الجماجم، وما يوم دير الجماجم! بها كانت المعارك والملاحم، بضربٍ يُزِيل الهَامَ، عن مَقِيله[3]، وَيُذْهِل الخليل عن خَليله، يا أهل العراق، وَالْكَفَرَاتِ بعد الفَجَرات، وَالْغَدَرات بعد الخَتَرَات[4]، وَالنَّزَوَات بعد النزوات، إنْ بَعَثْتكم إلى ثغوركم غَلَلتم[5] وَخُنْتم، وإن أَمِنتم أرجفتم، وإن خِفْتم نافقتم، لا تذكرون حَسَنة، ولا تشكرون نِعْمَة، هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاوٍ، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع، إلا تَبِعتموه وآويتموه، ونصرتموه وزكَّيتموه؟ يا أهل العراق، هل شَغِب شاغب، أو نَعَب ناعب، أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟ يا أهل العراق: ألم تَنْهَكم المواعظ، ألم تَزْجُركم الوقائع؟".

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر، فقال: "يا أهل الشام؛ إنما أنا لكم كالظَّلِيمُ الرامح[6] عن فِراخه، يَنْفِي عنها المَدَر[7]، ويباعد عنها الحجَر، وَيُكِنُّها من المطر، ويَحميها من الضِّباب[8]، ويحرُسها من الذِّئاب، يا أهل الشام؛ أنتم الجُنَّة والرِّداء، وأنتم الْعُدَّة والحذاء"[9].

يلاحظ في هذه الخطبة غرابة البناء، وفقدانها لأول عناصر الخطبة، وهو المقدمة، فالحجّاج في خطبته أسقط المقدمة ولم يبدأ جمهوره بالحمد والثناء والصلاة على النبي، تماشيًا مع النسق الإسلامي، فقد اقتحم أسماعهم بما يكرهون، وبما ناسب خيانتهم له،

---

(1) العَطَنُ للإبل: كالوَطَنِ لِلنَّاسِ. ابن منظور، لسان العرب(عطن)(ج13\286).

(2) لَوَى عَلَيْهِمْ يَلوِي إذا عطَف عَلَيْهِمْ. ابن منظور، لسان العرب (لوى)(ج15\264).

(3) ضربة السيف التي تزيل الرأس عن موضعه. انظر: ابن منظور، لسان العرب (قيل)(ج11\578).

(4) الخَتْرُ: الغَدْر. ابن منظور، لسان العرب، (ختر)(ج4\229).

(5) الخيانة في القول والعمل. انظر: ابن منظور، لسان العرب (غلل)(ج11\501).

(6) الظَّلِيمُ: الذكَرُ مِنَ النعامِ، وَالْجَمْعُ أَظْلِمةٌ وظُلْمانٌ وظِلْمانٌ. ابن منظور، لسان العرب (ظلم)(ج12\379).
والرامح: وَالْعَرَبُ تَجْعَلُ الرُّمْح كِنَايَةً عَنِ الدَّفْعِ وَالْمَنْعِ ابن منظور، لسان العرب (رمح)(ج2\452).

(7) المَدَرُ: قِطَعُ الطينِ اليابِسِ. ابن منظور، لسان العرب (مدر)(ج5\162).

(8) جمع ضب.

(9) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2/279،280،281).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"المقام مقامُ زجرٍ وتخويفٍ لأهل العراق المُرْجفين، ولا يلائمه الحمد والثناء والتسليم، فأراد الحجّاج صدم أسماعهم بغير ما توقعوه، فأتى بهذا الانزياح الصوتي/المعماري الذي يتكئ على ترويع السامع، وهو ابتداء قويٌّ غير معتاد"[1].

وخصّ الحجّاج نفسه بطريقة جعلت خطبته متفردة في منهجها وتلاحق موضوعاتها، كأنّها تسابق الخيل في ركضها، فإنَّ مقاطع الخطبة متسارعة لا توقف بينها، فالحجّاج يصب كلامه صبًا ويفرغ خطبته في إهَاب محكم متماسك، وهذا يظهر مدى الحضور الذهني المتقد عنده، فبدا في خطبته كالخبير في ماهية الخلق، إذ يصف تركيب الناس، ويسمي الأشياء بما يناسبها.

فقد استهل الحجّاج كلامه في أول مقطع من مقاطع الخطبة بتنبيه العراقيين بحرف النداء (يا)، الذي يستعمل لنداء القريب والبعيد، ليعلمهم ما سيسمعون بعد التنبيه، فصارحهم بما جبلوا عليه من أصل شيطاني متجذر فيهم، فأسند أفعالهم المشينة إلى الشيطان الذي عدّه جزءًا من خلقتهم (إنَّ الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم والدم والعصب...).

ثمّ المقطع الثاني وفيه يذكرهم الحجّاج بالوقائع التي سبقت المعركة الأخيرة يوم دير الجماجم، واقعة (الأهواز) و(الزاوية)، وذكر سوءاتهم في هذه الأيام التي بدأت بالخيانة وانتهت بإزالة الهام عن أجسادهم (ألستم أصحابي بالأهواز؟ حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر....، ثم يوم الزاوية، وما يوم الزاوية! بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم، وبراءة الله منكم، ونكوص وليكم عنكم؛ إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها....، ثم يوم دير الجماجم، وما يوم دير الجماجم! بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام، عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله).

ويعود في مقطع ثالث يعيب عليهم أفعالاً دنيئة حيث يقابلون الإحسان بالطغيان، ولهثهم وراء الفتن (يا أهل العراق، والكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الخترات، والنزوات بعد النزوات، إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم...)، ثم ينهي كلامه معهم بالاستفهام (ألم تنهكم المواعظ؟، ألم تزجركم الوقائع؟) ألا تكفي هذه الموعظة، وهزيمتكم بدير الجماجم لتنتهوا عن غيكم، وتعودوا لرشدكم؟.

(1) أبو ندى، طبقات النص (ص7).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وختم الخطبة بحديث من القلب إلى القلب، إلى شيعته وعصابته، من أهل الشام الذين نافح معهم ضد طغيان العراقيين، ليحولوا دون زعزعة دعائم الدولة الأموية، وجعل من نفسه اليد الحانية عليهم، كما يحنو ذكر النعام على فراخه ويحميهم(إنَّما أنا لكم كالظَّلِيمُ الرامح عن فراخه)، وكذلك لا ينسى فضلهم على الدولة وعظيم ثقته بهم إذ لجأ إليهم في الشدة (يا أهل الشام؛ أنتم الجنة والرداء، وأنتم العدة والحذاء).

أهمل الحجّاج في الخطبة الاستئناس بالشواهد، التي يوردها الخطيب عادة لتقوية حجته، فبدا في خطبته وكأنه واثق تمامًا من أقواله حتى وصل به الأمر الاستغناء عن الآيات القرآنية والآثار، واستغناؤه عن هذه الأمور المهمة في خطبه ناجم عن خبرته العملية بأهل العراق، فتذكيره بخيانتهم القريبة أغناه عن الإثبات، وهذا من نتائج تحول الخطابة من الموعظة إلى شكل من أشكال التقريع والتعنيف.

والخطبة قصيرة مقارنة بخطب الأمراء في عصره، ولعلّ القِصَر يرجع إلى غاية الحجاج في قصده إلى أن تحفظ معاني الخطبة وأن لا يُنْسي طولُها بعضَ مقاطعها، وخطب العرب مالت إلى الإيجاز والتوسط أكثر من ميلها الإطناب والإسهاب، يقول الجاحظ: "..اعلم أنّ جميع خطب العرب ..منها الطِّوال، والقِصَار،.. ووجدنا عدد القِصَار أكثر، ورواةُ العلمِ إلى حفظها أسرع"[1].

وهناك أسباب يعلل بها الباحثون كثرة القصار، مثل: الاعتماد على الرواية لا الكتابة في نقل المرويات، وهذا يجعل جزء أو أجزاء من الخطبة تتبعثر في الأسماع فلا ينقل إلا جزء قصير منها، أو لأنَّ هذا الموجز القصير هو الذي استطاع الراوي حفظه، لسهولة حفظه وجودته أكثر من سواه، ومال البعض إلى القصر المفرط بقصد التفنن، وبيان البراعة وإثبات القدر على الايجاز الذي يعد الأكثرون البلاغة فيه[2].

واتبع الحجّاج سنن الأمويين في خطبهم وهو أحد أهم أمراء بني أمية، وعمّر خطبه على طرازهم، مقتفيًا أثرهم في البناء، فلذلك نرى أنَّ البناء العضوي لخطب الحجّاج لم يمثل انزياحًا معماريًا في عصره، ولكنَّ الخطبة الأموية ولا سيما السياسية مثّلت انزياحًا.

(1) الجاحظ، البيان والتبيين (ص216).

(2) أنظر: أبو زهرة، الخطابة: أصولها–تاريخها في أزهر عصورها عند العرب (ص220 و249).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن خطب الحجّاج بن يوسف التي شكل بناؤها انزياحًا عن المعمار الإسلامي، خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته، على إثر مرض ألمَّ به، فلمّا بلغه الخبر تحامَل حتى صعد المنبر فقال:

"إنَّ طائفة من أهل العراق، أهل الشقاق والنفاق، نزغ[1] الشيطان بينهم فقالوا: مات الحجاج، ومات الحجاج فمَهْ؟ وهل يرجو الحجاج الخيرَ إلا بعد الموت؟ والله ما يسرني ألَّا أموتَ، وأنَّ لي الدنيا وما فيها، وما رأيت الله رَضِيَ بالتخليد إلا لأهون خلقِهِ عليه؛ إبليس، قال: ﴿ **أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ(15)** ﴾. [الأعراف]، ولقد دعا اللهَ العبدُ الصالحُ[2]، فقال: ﴿ **رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي** ﴾ [ص:35] فأعطاه ذلك إلا البقاء، فما عسى أن يكون أيها الرجل؟ وكلكم ذلك الرجل، كأني والله بكل حيٍّ منكم ميتًا، وبكل رطب يابسًا، ونقل في ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولًا، في ذراعٍ عرضًا[3]، وأكلت الأرض لحمَه، ومصَّتْ صديدَه، وانصرفَ الحبيبُ من ولده يقسِّم الخبيثَ من ماله، إنَّ الذين يعقلون يعلمون ما أقول"[4].

بداية أسقط الحجّاج المقدمة، ودخل في شأن خطبته كفاحًا، وهذا أسلوبه في كثير من خطبه؛ وشأن خطبته سياسي، ومتصل بالخلاف القائم بين بني أمية ومناوئيهم من العراقيين، ولكن هذه المرة استبشر العراقيون بمرض الحجّاج على أنَّه قد يهلك بمرضه؛ فما كان منه إلا أن يرقى المنبر ليكون وقوفه بين أيديهم دليل الصحة، ثمَّ ليؤكد أنَّ المستبشرين بمرضه هم طائفة وليس الكل، وجعل الخلاف السياسي سبب كرههم له بقوله "أهل الشقاق والنفاق"، وبهذا يكون قد طمس بُشراهم.

وتبدو هذه الخطبة كالسياسية يرد بها الخطيب على شائعة موته بالرضا عن ذلك وعدم الوجل، والتقليل من شأن الدنيا وزهده فيها، ولكن ما تلبث أنْ يتحول الحجّاج بمجراها بلطافة فائقة إلى خطبة وعظية تذكر بحتمية الموت لكلّ حي، وكيفية الانتقال البئيس إلى قبر ضيق؛ وبهذا الانتقال اللطيف إلى الموعظة تتجلى فطنة الحجّاج بعدم إظهار انزعاجه من ترديد شائعة موته، كأنَّه لا يأبه بهم وبدعواهم، بل على عكس ذلك

---

(1) أفسد وأغرى. ابن منظور، لسان العرب (نزغ)(ج8\454).

(2) العبد الصالح هو نبي الله سليمان –عليه السلام–.

(3) "ثلاثة أذرع طولًا، في ذراعٍ عرضًا"، وهذه أبعاد القبر.

(4) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2/286،287).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أظهر الموت وكأنَّه الخلاص من شرورهم، وجعلهم في خانة إبليس الذي خلّده الله في الأرض لهوانهم على الله.

وصنفَ الحجّاج نفسه مع الصالحين بأنْ شبه نفسه بنبي الله سليمان –عليه السلام– الذي اصطفاه الله إليه ولم يرضَ له الخلود في الدنيا؛ وأخيراً يختم الخطبة بـ:" إنَّ الذين يعقلون يعلمون ما أقول" وهي غير الخاتمة التي عرفتها الخطبة العربية التي تنتهي بإيجاز موضوع الخطبة ثم الدعاء، وأيضًا خاتمة تحمل تقريعاً لمن استبشروا بمرض الحجّاج، بأن لو كانوا أصحاب عقول ويعلمون ما يقولون لما تكلموا بهذه الطريقة عن موت الحجّاج؛ وبهذا سلبهم الفرحة وانتصر لنفسه، وكان متمهلاً غير متعجل، يبطئ في الكلام ثابت الجنان واضح العبارات بيِّن الصوت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثالث

الأسلوبية التركيبية والدلالية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثالث: الأسلوبية التركيبية والدلالية

المبحث الأول: الأسلوبية المعجمية (المفردات)

ولد الحجّاج ونشأ في بيئة عربية فصيحة، وقبيلته ثقيف التي تؤخذ عنهم اللغة، وتعد لغته من اللغة الأدبية بتبنيها منهجًا بلاغيًا، يَفضُل عن اللغة العادية التي وظيفتها مجرد الإفهام بالفصاحة والبناء، والمعجم الدال.

وهذه اللغة لا غنى للحجّاج عنها في خطبه، لأنَّ المخاطبين عرب أقحاح، ولا تنشيهم اللغة العادية، فليس من الحكمة أنْ يواجههم أميرهم بلغة سوقية، وقد شهد له الثِّقات برجاحة العقل؛ فقال الجاحظ: "ذكر صالح بن سليمان عن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث قال: ما رأيت عقول الناس إلا قريبًا بعضها من بعض، إلا ما كان من عقل الحجّاج بن يوسف وإياس بن معاوية، فإنَّ عقولهما كانت ترجح على عقول الناس"[1]؛ وثمة اعتبار آخر لاستخدام اللغة البليغة تتعلق بطبيعة المهمة التي أوكلت للحجّاج، وهي كسر شوكة المتمردين في العراق، وتوجيههم لقتال أعداء الدولة، فكانت فصاحة الخطيب من أخص خصائص الأمير المقتدر في عصرهم، وقد أدرك الأمراء قيمة الكلمة وأثرها في السطوة والاستحواذ على العامة، "فكانت وراء السيوف الخطب القوية والعبارات الشديدة"[2]، تنشوهم كما تنشوهم السيوف، وتصلح في موضع ينبو به السيف.

وتأتي دراسة معجم الحجّاج بن يوسف في خطبه لأنَّ "المعجم هو لحمة أي نص أدبي وسداته، ويمثل المخزون اللغوي الكامن في حافظة المبدع، الذي يستغله في إخراج عمله"[3]، وبالتالي فإنَّ هذا المخزون اللغوي يشكل الملامح الأولى لخصائص الأسلوب لديه؛ فخطبه أخذت أشكالاً من التأثر والتأثير، تأثرت ببيئية لغوية ذات مستوى عال، وهي مصدر الحجّاج، وهذا التأثر انعكست آثاره على الأقوام التي خطب فيها الحجّاج، ليحقق إنجازاته السياسية بالكلمة على حساب السيف.

تمّ تصنيف ألفاظ خطب الحجّاج إلى حقول دلالية، وقد يكون المعنى السياقي للفظة هو الذي يحدد آلية التصنيف، وتوزعت ألفاظ الخطبة على اثني عشر حقلاً؛ منها:

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية –دار أبي حيان– (ج157/9).

(2) أبو زهرة، الخطابة أصولها–تاريخها في أزهر عصورها عند العرب (ص238).

(3) أبو حميدة، الخطاب الشعري عند محمود درويش دراسة أسلوبية (ص61).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الألفاظ الدينية، التمرد والمعصية، ألفاظ التهديد والوعيد والتقريع، وألفاظ أعضاء الإنسان، والألفاظ الدالة على أفعال الإنسان، ألفاظ من عالم النبات، وأخرى من عالم الحيوان، وألفاظ الزمان وأخرى لألفاظ المكان، والموت والحساب، والقتال، والرخاء؛ وهذه أهم الدلالات التي حملتها خطب الحجّاج؛ وكانت أكثر الألفاظ تنتمي إلى حقل الألفاظ ذات الدلالة الدينية، ثمَّ ما حملت معاني التمرد والمعصية، سواء الخروج على حدود الشريعة الإسلامية، أو الخروج على طاعة الأمير، وثالث هذه الحقول ألفاظ التهديد والوعيد والتقريع.

1- حقل الألفاظ الدينية

(ابن الزبير (2)-أحبار-الأمة-الخلافة-طاعة(3)-حرم-آدم(3)-حرمة(2)-خلقه-بيده-أسجد-ملائكته-أباحه-أكرم-الكعبة-والله(2)-أمير (2)-المؤمنين(2)-سننتم-سنن-كفرت-الحق-أقسم-الأخلاق-تكبيرا-للسلطان-ولاتكم-المسجد-إسلام-بيان-دينه-خلافته-براءة-وليّكم-حسنة-لاتشكرون-نعمة-المواعظ-يفلح-أفلحت-مثوبة-لعبدالله-خليفة الله-حبيب الله-والله(2)-حلالا-القرآن-الله-كفانا(2)-أمرنا(2)-فليته-لايتوبون-أمرتم-القرآن-الصلاة-البر-الفاجر-يحكم-ملك-قادر-فاعملوا-حذر-واعلموا-أساءوا-بماعملوا-الخير-الشر-مثقال(2)-خيرا(2)-شرا(2)-استغفر-والله(2)-أمير-المؤمنين-أسأل-حسن-العون-تبارك-تعالى-نبيكم-صلى(2)-سلم(2)-رسول-الخلفاء-الراشدون(2)-المهتدون-المهديون(2)-وليكم-الفقه-القرآن-المروءة(2)-الحق-الولاة-خلافته-فاسمعوا-أطيعوه-وليتكم-رضي-التخليد-خلقه-إبليس-عاد-ثمود-يبعثون-دعا-العبد-الصالح-فأعطاه-البقاء-ذكّروا-بآيات-صمًا-عميانًا-حاسب-راقب-زوّر-عمله-فكر-يقرؤه-يراه-همه-آمرا-هواه-زاجرا-قلبه-قاده-حق-تبعه-قاده-معصية-كفّه-للبقاء-دار-نفل-يخروا-اقدعوا-الأنفس-رحم-لنفسه-فقادها-عطفها-معصية-الصبر-محارم-أيسر-الصبر-اللهم-أرني-الغيَّ-غيا-فأجتنبه-أرني-الهدى-هدى-فاتبعه-لا تكلني-نفسي-فأضل-ضلالا-بعيدا-والله-ما أحب-يذكر-يستغفر-ذنبه-يفكر-حزنه-أسفه-كتب-الفناء-البقاء-اقهروا-يسأل-يلوي-يذهل-دائب-مضيع-ساع-خذوا-غناكم-فقركم-مئونة).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شغلت الألفاظ ذات الدلالة الدينية أكبر حيز في المعجم الخاص بخطب الحجّاج، على الرغم من أنَّ معظم خطبه كانت سياسية، يدعو فيها لطاعة الخليفة الأموي، ويحذر من نزع بيعته؛ وهذه النتيجة ليست غريبة، بل من الطبيعي جدًا أن يكون المعنى الديني من خصائص معجم الحجّاج، الذي شغله القرآن الكريم قبل تقلّده الإمارة وبعدها؛ سواء تعليمه لصبيان الطائف، أو موجهًا أهل الاختصاص لخط القرآن في مصحف وحفظه من الضياع، كما أنَّه عايش كبار الصحابة والتابعين في الحجاز والعراق؛ ويأتي توظيفه للمعاني الدينية من اتجاهين

الأول: كونه جزءًا أصيلاً من تربيته ونشأته، وحبه للإسلام؛ والاتجاه الثاني: طبيعة الخطابة القائمة على الإقناع والتأثير، فكان الدين موردًا أساسيًا في جلب الأدلة، وتقوية رأيه الذي يعرضه على رعيته، ومواجهتهم به؛ كما يعد الدين الإسلامي ذا مكانة في نفوس رعية الحجّاج الذين خاطبهم، فكسوة الخطبة بالطابع الديني يضرب الوتر الإيماني لدى المتلقين المترددين، أو يحرج أولئك الذين في نفوسهم نفور من السياسة الأموية، فمن ميزات هذه الألفاظ أنَّها "مناسبة مثيرة لخيال الجماعة، موقظة لذكريات حية في نفوسهم، فإنَّ كل جماعة عندها طائفة من الألفاظ، إذا ذكرت، أثارت خيالات تهز النفس بالسرور والاطمئنان، أو بالسخط والغضب"[1].

2- حقل التمرد والمعصية

وفي هذا الحقل عدَّدَ الحجّاج صورًا للتمرد، منها: خلع البيعة، والطموح بالخلافة، وطاعة الشيطان، وموالاة الأعداء، ومناجاة الفتن، والمفردات التي عبّرت عن هذه الصور ودخلت تحت معاني التمرد هي:

(رغب-نازع-خلع-استكن-للعصاة-عصاه-بخطيئته-طامحة-متطاولة-يقعقع-يغمز-كتغماز-أبغضتموني-تضروني-عداوتكم-الفتن-اضطجعتم-الضلال-الغي-قالا-قيل-تقول-تخلف-لايراد-يراد-الشيطان-لا تقرع-الشيطان-طيفا-أعياه-دواؤه-داؤه-ثقل-وضعه-ذنبه-ثقله-سقمت-سبقته-بادرة-أفسدكم-ترنيق-استرخى-ساء-عصاني-الشيطان-استبطنكم-خالط-أفضى-حشاكم-نفاقًا-شقاقًا-أشعركم-خلافًا-اتخذتموه-دليلا-تتبعونه-قائدا-تطيعونه-مؤامرا-تستشيرونه-رمتم-المكر-سعيتم-بالغدر-استجمعتم- زعمتم-للكفر-الكفرات-الفجرات-الغدرات-الخترات-النزوات-أمنتم-خفتم-غللتم-خنتم-أرجفتم-نافقتم-استخفكم-ناكث-استغواكم-غاوٍ-استنصركم-

(1) أبو زهرة، الخطابة أصولها-تاريخها في أزهر عصورها عند العرب (103).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ظالم–استعضدكم–خالع–تبعتموه–آويتموه–نصرتموه–زكيتموه–شغب–أتباعه–أنصاره–الفتنة–بالنجوى–تنتج–بالشكوى–تقاتلون–جهالكم–لايتعلمون–أعصى–شراركم–لايقرءون–هجرا–لايأتون–دبرا–لدائكم–كارهين–الزيغ–نزغ–الشيطان–أنظرني—الخبيث–التبابعة–الأكاسرة).

وتأتي مفردات هذا الحقل في الكثرة بعد حقل المفردات الدينية؛ وكثرة دوران هذه المعاني في الخطب يؤكد على جدية مهمة الحجّاج، حين وُليّ على العراق، فسياسته مرسومة بناء على وجود خطر يهدد الدولة ويتطلب علاجًا حازمًا؛ فمفردات هذا الحقل جاءت في سياق التحذير منها، وتوبيخ فاعليها؛ ويبدو أنَّ التمايز واضح بين حقل المفردات الدينية، وحقل التمرد والمعصية، فدلالة الأول تتوجه بالولاء لبني أمية، والثاني للتمرد عليه، ويظهر تأثير حقل الألفاظ الدينية على حقل التمرد؛ فإذا كان الولاء للخليفة واجب شرعي؛ فإنَّ مفردات حقل التمرد تدخل في إطار المحرمات؛ وتأثير قضيتي الولاء والبراء للخليفة يثيران حماسة الحجّاج، فتطفو على لسانه الكثير من المفردات حول هاتين القضيتين؛ ويشغلان حيزًا في معجمه اللغوي.

3–حقل التهديد والوعيد، والتقريع

وينتمي لهذا الحقل مفردات لا تحمل أقل من الموت، مثل:

(لأَحمل–الشر–بحمله–أحذوه–أجزيه–بمثله–لأرى–لصاحبها–أمرّها–أصلبها–مكسرا–لألحونكم–لأقرعنّكم–لأعصبنكم–عصب–لأضربنكم–ضرب–الشقاق–النفاق–مساوئ–اللكيعة–عبيد–الإماء–أرميكم–تتسللون–لواذًا–تنهزمون–فشلكم–تنازعكم–تخاذلكم–نكوص–ولّيتم–الشوارد–النوازع–عضّكم–قصمتكم–أكْرَهُ–أهون–أذاقها–الجوع–الخوف–لا أعد–وفيت–لا أهم–أمضيت–لا أخلق–فريت–لتستقيمنّ–لأدعنّ–شغلا–أوجهكم–لا أجد–سفكت–أنهبت–هدمت–جعلتها–أعجله–وضعت–قصرت–عقوبته–رفعه–صلبه–الهلكة–سبق–بسفك–أنذر–لا أنظر–احذر–لا أعذر–أتوعد–لا أعفو–الحزم–العزم–الجَلَد–سلبني–أبدلاني–لا آمر–يخرج–ضربت–صحّت–تنهكم–تزجركم–عذيري–لأجعلنهم–الداثر–لضربت–إيّاكم–مات–بدائه–غما–لايحيق–قتلناه–فتشت–جريت–سمعت–المستوحش–المستريح–أعلم–مرت–أرى–تحرصون–تضيعون–أريد–تنفيذ–حملت–مقاساتكم–الصبر–علمت–أقوى–أعرفّ–رأيت–الجبابرة–المتكبرون).

ولا يكاد يخلو هذا الحقل من معاني القتل والإرهاب، فالدم يقطر منه، وشرارات الغضب تتطاير من هذه اللغة العنيفة، فلغة الحجّاج في خطبه صاغها: "لسان من أعنف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الألسنة بيانًا وأشدها إغرابًا وأوجزها تركيبًا للعبارة، وأبرعها اختيارًا للفظة المعبرة عن أعنف معنى أتمّ، ما يكون التعبير، وأعنف ما يكون الأداء"[1]، وجاءت مفردات هذا الحقل منسجمة مع الحقول السابقة؛ فالحجّاج وظّف سطوتها ليحث الرعية على السمع والطاعة، والاستقامة على أمر الدين، وقسوتها محذرًا المتمردين والعصاة؛ فهذه اللغة ترويض للمتمردين، حيث "إنَّ اللغة والخطاب صورة من صور السيطرة على النفوس والعقول أو تغيير ما بها من خواطر وأفكار، وفطنة الحجّاج وذكاؤه تتبدى في نصه وكلامه"[2].

4- حقل الموت والحساب

تجلت مفردات هذا الحقل في الخطب الوعظية خاصة، وبعض الخطب التي دحض بها الحجّاج مزاعم خصومه من العراقيين؛ كالخطبة التي كانت ردًا على إشاعة تُبشر بموته، ومعاني هذا الحقل لا تخرج عن الإطار الديني، ويأتي وضعها في حقل خاص، لأن الحجّاج خصّ بعض خطبه بمواضيع تتعلق بالموت فقط؛ وينبئ هذا الحقل عن فزع الحجّاج من يوم الحساب، وخوفه من عذاب الله، ولأنَّ هذا الأمر يشغل باله؛ فقد وقف بالناس واعظًا، يحثهم على الاستعداد لما بعد الموت، وألفاظ هذا الحقل في خطبه:

(الآخرة-عذاب-ملاقوه-ليجزي-أحسنوا-بالحسنى-الجنة-النار-نعى-الشهيد-يبعثون-أكفانه-للفناء-الموت-مات-أموت-ميتا-رطبا-يابسا-النار-الجنة-الأموات-المحاسب-الصراط-منصوب-جهنم-تزفر-تتوقد-الجنة-ينعمون-روضة-يحبرون-ربه-صحيفته-ميزانه-معاده-الأجل).

والمعجم اللغوي للمبدع، وأكثر المفردات دورانًا فيه، ترشدنا إلى هموم المبدع وتطلعاته، فما يجيش به صدره يفضحه لسانه؛ وحقل الألفاظ الدينية، وحقل التمرد، وحقل التهديد والوعيد والتقريع، كانت أكثر الحقول تداولاً في لغة الحجّاج، "فالحقل الذي تتردد مفرداته بكثرة، لا بد أنْ يكون لموضوعه أهمية متميزة، في مقابل الموضوعات الأخرى، والعكس صحيح، وهذا الاستنتاج يستمد شرعيته من أنَّ اهتمام الشاعر بموضوع ما، لا بد أنْ يدفعه للدوران حول مجموعة معينة من الألفاظ، تخدمه في التعبير عن ذلك

(1) الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (ص366).
(2) أبو ندى، طبقات النص (ص14).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الموضوع"[1]؛ فالحجّاج خطيب سياسي -كشأن خطباء عصره- وظّف اللغة بكلّ معانيها لخدمة أهدافه السياسية.

وخطب الحجّاج الوعظية التي خصصها للحديث عن الاستعداد للموت والحساب، وطرق ترويض النفس وتزكيتها خلت من المفردات الدالة على القتال وأدواته، بل دخلت مفرداتها ضمن حقول المفردات الدينية.

وتتسع لغة الحجّاج لتشمل مفردات من عوالم الإنسان والحيوان والنبات؛ وكان قد تطرق لها ليرسم بها صوره المساعدة في الإقناع والترهيب، وتتوزع هذه المفردات على حقول مثل:

5-حقل أعضاء الإنسان

(أبصارًا-أعناقًا-رؤوسًا-جانبي-يديه-جسده-دمه-رأسه-فمه-بدنه-دمه-يدي-عنقي-عنقه-اللحم-الدم-العصب-المسامع-الأطراف-الأعضاء-الشِّغاف-المخاخ-الأصماخ-طرفي-الهام-مقيله-بالقلب-دماؤهم-عنقه-العقل-لحمه-أعناقكم-أيديكم-أيديهم).

ظهر الحجّاج في خطبه عالم تشريح، إذ شمل معجمه مفردات تدل على أعضاء جسم الإنسان، واستخدم هذه المفردات في الترغيب والترهيب، مستثمرًا المعاني التي تتعلق بهذه الأعضاء ووظائفها، وانقسمت هذه الأعضاء إلى قسمين: أعضاء تتعلق بالتفكير والمشاعر مثل: (البصر-الفم-العصب-المسامع-الشغاف-المخاخ...)، وقسم آخر من الأعضاء يؤدي الإنسان بها وظائف الحركة مثل: (أعناق-جانبي-جسده-دمه-رأسه...)، واستخدم هذه المفردات ليعبر عن انحيازه لأهل الشام أو ليهاجم خصوم الدولة الأموية، فقد تودد لأهل الشام وجعلهم أنسٌ لقلبه وذلك في قوله: "ولَأَبناؤكم آنَسُ بالقلب من الولد"، لأنَّه يعلم أنَّ القلب محل المشاعر، كما أنَّه أكثر من استثمار هذه الأعضاء ليمارس الترهيب والتخويف على المخالفين والعصاة كما في قوله مهددًا خصومه إذا فكروا أنْ يفتحوا أفواههم بالشكاية أو الوشاية: "ومَنْ سبقته بادِرَةُ فمِه، سبق بدنَه بسَفْكِ دمه"[2]، ليكون الفم سبب سفك دم صاحبه، وهكذا يحملهم المسؤولية عن أنفسهم.

---

(1) أبو حميدة، الخطاب الشعري عند محمود درويش دراسة أسلوبية (ص63).

(2) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج278/2).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحسن توظيف هذه المفردات ساعد الحجّاج على تشكيل أسلوب مميز في التعبير عن مراده.

6- حقل عالم النبات

(أينعت-قطافها-التين-لحو-العصا-السَّلمة-الفقع-تحصد).

7- حقل عالم الحيوان

(فررت-مراقد-غرائب-الإبل-لببه-ارتفع-عشش-باض-فرخ-كالإبل-أعطانها-نعب-زفر-الظليم-فراخه-الذئاب-تلقح-البيطار-بالفرس-البازل-بعنان-بخطام-جمله-خطاما-زماما-بخطامها).

"وهذا الحشد اللفظي للعوالم السابقة يظهر حرص الحجاج على أن يبلغ غايته ويدل على سعة معجمه واقتداره على اللغة وهو العربي الفصيح"[1]، كما وتظهر خبرة الحجّاج بالبيئة العربية: الحضرية والبدوية، ومعرفته بالموجودات التي يشاهدها العرب في يومهم، وقد استفاد من هذه الخبرة في إسقاط ما لهذه العوالم من خصائص وصفات، إمّا على فريقه -الدولة الأموية وأهل الشام- أو على الخصوم السياسيين للدولة الأموية، كلٌّ حسب ما يحب أنْ يصفه إيجابًا أو سلبًا.

8- حقل ألفاظ القتال

إذا أرهب الحجّاج الناس وتوعدهم بالقتل، فلا بد أنْ يذكر أدواته، وبهذا تكون العلاقة بين الحقول المعجمية تكاملية، فلا يكتمل معنى بمعجم دون آخر؛ وتشكل هذا الحقل من:

(نثر-كنانته-عجم-عيدانها-عودا-محاربة-عدوكم-العصا-سيفا-سوطي-سيفي-قائمه-ذبابه-نجاده-وقعة-السلاح-المعارك-الملاحم-بضرب-يزيل-الرماح-ثغوركم-الوقائع-الرامح-ينفي-يباعد-يكنها-يحميها-يحرسها-الجُنة-الرداء-العُدة-الحذاء-بالسيف-قتل-المغازي-البعوث).

(1) أبو ندى، طبقات النص (ص15).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا تكاد الدلالة على العقلية العسكرية للحجّاج تغادر هذا الحقل الدال على ألفاظ القتال، وهذا الحقل يحتوي على أدوات القتال وأنواعها، حتى مسميات أجزاء السيف وهي: (سيفي–قائمه–ذبابه–نجاده)، وأسماء المواجهات مع العدو مثل: (وقعة–المعارك–الملاحم–ثغوركم–الوقائع–المغازي–البعوث).

وهذا التنويع في مفردات هذا الحقل يقوي النص، كونه لا يقتصر على لفظ أو لفظين يداوم الخطيب على تكرارهما، وهذا من شأنه إمتاع السامع وإدهاشه بالجديد، وإرهابه بهذا الكم من المعارف العسكرية.

ونشأة الحجّاج وهمته السياسية، وغاية خطبه لونت أسلوبه بلون خاص من المفردات، تميزه عن غيره من الخطباء.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني: أسلوبية التراكيب

(النداء – الاستفهام – الأمر والنهي).

أولًا: النداء

يعرفه البلاغيون "طلبُ المتكلم إقبالَ المُخاطَبِ عليه بحرف ناب مناب "أُنادِي" المنقول من الخبر إلى الإنشاء"[1].

صدَّر الحجّاج الكثير من خطبه بالنداء، بعد أنْ أسقط المقدمات، وقد تكرر أسلوب النداء في بعض الخطب أكثر من مرتين، حتى ليظن المطلع على خطبه أنَّ أسلوب النداء لازمة في كلام الحجّاج، ففي اثنتي عشرة خطبة من أصل تسع عشرة، كرر الحجّاج النداء تسع عشرة مرة، وخطبته بعد موقعة دير الجماجم احتوت وحدها على خمسة نداءات، مما يؤكد أنَّ تكرار النداء لدى الحجاج بدا ظاهرة أسلوبية تتصل بمراد الحجاج وأغراضه في خطبه وطريقته في الكلام.

والدارج في نداء الحجّاج لرعيته أنْ يناديهم منسوبين إلى المكان، مثل: (يا أهل العراق، يا أهل الكوفة، يا أهل الشام)؛ ولم ينسبهم إلى قيم إيمانية أو سلوكية، مثل: (أيها المؤمنون، يا أهل الإسلام...)، وكذلك لم ينسبهم لقيمة اجتماعية، مثل: (أيها الإخوة المسلمون)؛ وغدا نسبتهم إلى القيم المكانية أسلوبًا مضطردًا في ندائه، بقوله –مثلًا–: "يا أهل العراق"؛ والنداء بالنسبة للمكان إمّا أنْ يكون نداءً محايدًا، أو نداءً له غاية في نفس المنادي؛ فالحجّاج الحجازي درايته بالعراقيين أنَّهم أهل النقائص.

وحين تتبعنا للكلام الذي يتلو النداء مباشرة وجدناه يقع بين الزجر والتوبيخ، مثل قوله: "يا أهل الكوفة أما والله إني لأحمل الشر بحمله..."، و قوله: "يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق..."؛ وهكذا بقية النداءات:

(يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، وبني اللكيعة/ أيُّها الناس: من أعياه داؤُه، فعندي دواؤُه.../ يا أهل العراق، إنَّ الشيطان قد استبطَنَكم.../ يا أهل العراق، والكفرات بعد الفجرات.../ يا أهل العراق هل شَغِبَ شاغب.../ يا أهل

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة (ص82).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكوفة، إنَّ الفتنة تُلْقَح بالنَّجْوَى، وتُنْتَج بالشكوى.../ يا أهل العراق: إنِّي لم أجد دواءً أدوى لدائكم..../ يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق...) [1].

والنداء بالمكان يحمل شيئًا من التقريع، وسفالة المكان، المنبئ عن انحطاط الإنسان، وتدهور قيمه؛ لذلك لم يبال الحجّاج أنْ ينعتهم بأهل الشقاق، والنفاق، ومساوئ الأخلاق؛ فالنداء يحمل تنبيهًا وربطًا بينهم وبين هذا المكان، كأنَّهم لن ينفكوا عن أخلاقهم، وسلوكهم المعوج، ما ارتبطوا بهذا المكان.

كما أنَّ نداءه لأهل الشام مختلف عن نداء العراقيين، فإذا تمعنا الكلام الذي يتلو نداءه للشاميين نجده يتودد لهم، ويمتدحهم "يا أهل الشام إنَّما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه..." و "بل أنتم يا أهل الشام كما قال الله سبحانه ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ(172) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(173)** ﴾. [الصَّفات]"، فنفهم من ندائه أنَّه يربط الأخلاق والطبائع، بالأماكن، ونداؤه للناس حسب انتمائهم المكاني يخصص ما بعد النداء من مدح أو زجر بأصحاب هذا المكان الذين يناديهم.

وفي أربع من خطبه نادى رعيته بـ "أيّها الناس"، وتفسير ذلك أنَّ هذه الخطب كانت وعظية، أو نعيٌ لموتى؛ فلمّا مات عبدالملك بن مروان خطب بالناس ينعى الخليفة بقوله: "أيُّها الناس إنَّ الله تبارك وتعالى نعى نبيكم –صلّى الله عليه وسلّم– إلى نفسه..."[2]، وخطب ينعى ولده محمداً، وأخاه محمداً: "أيُّها الناس محمدان في يوم واحد..."[3]، وخطب الناس واعظًا: "أيُّها الناس قد أصبحتم في أجل منقوص، وعمل محفوظ، رُبَّ دائبٍ مُضيع، وساعٍ لغيره..." [4]، وخطبة وعظية أخرى: "أيُّها الناس اقْدَعُوا هذه الأنفس، فإنَّها أَسأَلُ شيءٍ إذا أُعْطِيَتْ، وَأَعْصى شيءٍ إذا سُئِلت"[5]، والخطب الوعظية وخطب النعي تخص العامة، فلذلك جاء نداؤهم بالناس.

---

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج273/2،...،289).

(2) المرجع السابق 284/2.

(3) المرجع نفسه 285/2.

(4) المرجع نفسه 287/2.

(5) المرجع نفسه 288/2.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعند التأمل في أسلوب الحجّاج، لمحاولة تعليل هذا التكرار للنداء، علينا أنْ نربط بين المبدع والنص، والوقوف على الحالة النفسية للحجّاج، وموقفه من جماعة المخطوبين، فالمبدع وفق الأسلوبية: "الذي يبدع اللغة إبداعًا يتناسب مع تكوينه النفسي والاجتماعي والثقافي"[1]، ومن خلال هذه السمة الأسلوبية تبرز براعة الحجّاج في استغلال أحد أساليب البلاغة العربية، وجعلها ذات أثر على السامعين، وكم أثرت شخصيته الحجازية على أسلوبه في النداء ليحقر أهل العراق، فالحجاز مصدر فخر، أمّا العراق فلا، والحجّاج تناسى نداءهم بالقيم الإيمانية، أو التي تقربه منهم ليشعرهم بدناوتهم، ومدى نقصهم.

ثانيا: الاستفهام

يجنح الخطباء عادة في خطبهم للاستفهام، وغالبًا لا يراد به السؤال، لأنَّ الخطيب لا ينظم حوارًا مع المتلقين يكون من مقتضياته المشاركة وإثراء الحوار، فهو يلقي ما يجيش به صدره، والناس مستمعون له، ويصح للخطيب أنْ يصوغ الاستفهام صياغة مجازية لغرض يناسب السياق الذي يتحدث فيه، لاعتماد الخطيب عليه في الإقناع وإقامة الحُجّة؛ فلا يشترط أنْ يكون الاستفهام من النوع الطلبي الذي يُعرّفه علم البلاغة بأنَّه "طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل"[2].

ويُعرِّفه العلوي في الطراز على أنَّه "طلب المراد من الغير على جهة الاستعلام، فقولنا: طلب المراد، عام فيه وفى الأمر، وقولنا، على جهة الاستعلام، يخرج منه الأمر، فإنَّه طلب المراد على جهة التحصيل والإيجاد"[3]؛ وأدوات الاستفهام: الهمزة، وهل، وما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين، وأنّى، ومتى، وأيّان.

ويخرج الاستفهام عن الغرض الأصلي إلى أغراض مجازية عديدة؛ مثل: الأمر، النهي، النفي، التشويق، التعجب، التمني، التهكم، التحقير، التقرير، التسوية، الاستبطاء، الاستبعاد، التعظيم، الإنكار، التوبيخ، التحسر، الاستئناس، التهويل، التنبيه، التكثير، الوعيد[4].

---

(1) أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق (ص61).

(2) مطلوب، أساليب بلاغية (ص118).

(3) العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (ج3\286).

(4) أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية (ص76).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ففي خطبته بعد وقعة دير الجماجم قدّم كلامه بشيطنة أهل العراق، واتهمهم بموالاة الشيطان حيث خرجوا على الدولة الأموية، وعصوا الله تعالى بثورتهم على خليفته عبدالملك بن مروان، حتى يصل قوله إلى الاستفهام: "يا أهل العراق، إنَّ الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم والدم والعصب، والمسامع والأطراف، والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحاشكم نفاقًا وشقاقًا، وأشعركم خلافًا، اتخذتموه دليلًا تتبعونه، وقائدًا تطيعونه، ومؤامرًا تستشيرونه؛ فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو ينفعكم بيان؟"[1]، فالحجّاج يعلم الإجابة سلفًا، ولكنَّه صنع للسؤال مقدمة حتى يثبت لهم عدم أهليتهم لتحمل المسؤوليات، وأنَّ الحلول السلمية معهم مثل: التجربة والوقعة والإسلام والبيان لا تجدي نفعًا في إصلاحهم، فيكون لسان حالهم الإقرار بالحقيقة.

ثمّ يثنّي بسؤال آخر متفرع عن الأول "ألستم أصحابي بالأهواز؟ حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أنَّ الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي، وأنتم تتسللون لواذًا، وتنهزمون سراعًا؟". فكأنَّ الحجّاج استشهد بهذا السؤال على السؤال السابق، وذكر فيه وقعة الأهواز، حيث انخرط العراقيون في ثورة ابن الأشعث على الدولة الأموية.

ونبقى في الخطبة نفسها، حيث يكثف الحجّاج في ختام حديثه مع العراقيين الاستفهامات؛ فيقول "يا أهل العراق، والكَفَرَاتِ بعد الفَجَرات، وَالْغَدَرات بعد الخَتَرَات، والنَّزوات بعد النَّزوات، إنْ بعثتكم إلى ثغوركم غَلَلتم وخُنتم، وإنْ أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون حسنة، ولا تشكرون نعمة، هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاوٍ، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع، إلا تبعتموه وآويتموه، ونصرتموه وزكَّيتموه؟ يا أهل العراق، هل شَغِب شاغب، أو نَعَب ناعب، أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟ يا أهل العراق: ألم تَنْهَكم المواعظ، ألم تَزْجُركم الوقائع؟"؛ وتأتي ثلاث استفهامات عقب موجة من توبيخ وتحقير العراقيين، فالحجّاج يذكرهم بخصالهم السيئة، ثمّ يذكرهم بسؤاله بالنتائج المترتبة على هذه الخصال، حيث يقصد عبدالرحمن بن الأشعث الذي وضعه الحجّاج على رأس جيش عرمرم لقتال الفرس، وعدوله مع العراقيين لخلع الخليفة؛ وعمد الحجّاج في سؤاله إلى إظهار طبيعة العراقيين ذات القابلية الكبيرة لنمو الفتن.

---

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج279/2).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وسؤاله الأخير "ألم تَنْهَكم المواعظ، ألم تَزْجُركم الوقائع؟" يبدو كالأمر بالتوقف عن الغي، والتنبيه على الخطيئة، فعدل عن الأمر المباشر: انتهوا، وانزجروا، إلى الاستفهام المجازي الذي يفيد الأمر والوعيد، حتى يراجعوا أنفسهم ويختاروا الأصلح، وفي هذا السؤال كرر أداة الاستفهام وهي الهمزة مرتين، للفت الانتباه والتأكيد على ضرورة الالتزام بمقتضى التنبيه.

ويستمر أسلوب الحجّاج بن يوسف في طرح أسئلته على المتلقين من العراقيين، بعد أنْ يهدد ويتوعد، ففي خطبة له بأهل الكوفة مقدمتها وعيد لهم باستئصال شأفة الفتن، ثمّ تعظيم لذاته التسلطية التي لا تأبه بهم "يا أهل الكوفة، إنَّ الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف؛ أما والله إن أبغضتموني لا تضروني، وإن أحببتموني لا تنفعوني، ما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودتكم، زعمتم أني ساحر، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(69)** ﴾. [طه] وقد أفلحت" ثمّ يلقي عليهم سؤالاً توبيخيًا، ردًا على تناقض أقوالهم مع أفعالهم، حيث يزعمون أنَّ الحجّاج يعلم اسم الله الأكبر، ويقاتلونه رغم شرف العلم الذي يعلمه "وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر؛ فلم تقاتلون من يعلم ما لاتعلمون؟".

ويأتِ الحجّاج على توظيف الاستفهام في الخطبة الوعظية، وعلى سبيل المجاز لا طلب الفهم والعلم، ففي واحدة من خطبه يشرع أمير العراقيْن بتذكير الناس بأنَّ آجالهم منتهية، وأنَّهم ملاقو أعمالهم يوم القيامة، وينبههم على أنَّ الدنيا عرض زائل، فقد أفنت من كان قبلهم، مثل: عاد وثمود، والتبابعة والأكاسرة؛ وبناءً على هذه الحقائق التي يعلمها الجميع يسألهم سؤالاً تقريريًا "أين الملوك الأولون، أين الجبابرة المتكبرون؟"

خاطب الحجّاج بن يوسف الثقفي جمهوره في هذه الطائفة من الخطب التي استقرأت فيها أحوال الاستفهام الحجّاجيّ بما يعلمونه من الوقائع التي جرت في العراق، وعنها استفهم –هو– العراقيين، لذلك حملت أساليب الاستفهام المعاني المجازية وليست الحقيقية "فقد يخرج الاستفهام عن حقيقته؛ بأنْ يقع ممن يعلم ويستغنى عن طلب الإفهام"[1]، جاء أسلوب الاستفهام عند الحجّاج منسجمًا مع منظومة التهديد والتوبيخ التي عرف بها، وسخّر الحجّاج الاستفهامات لتناسب الموضوع الذي يتحدث فيه، فهو إمّا أنْ

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن (ج2\328).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقرع العراقيين على ذنب اقترفوه، ثمّ يتبع التقريع باستفهام غرضه التقرير وإقامة الحجة، ومنع نقاشهم في الاتهامات الموجهة إليهم.

وعليه فإنَّ الاستفهام في الخطب جاء مكملاً لأسلوب الحجّاج في محاورته مع المخالفين، وقيام الخطبة على الحجة والإقناع، فطبيعة الحجّاج التسلطية تأبى السماع من الآخر أو إتاحة الفرصة للنقاش، وكذلك استفهاماته جاءت من نفس عالمة ببواطن الأمور، فكانت توبيخًا ووعيدًا، وتقريرًا.

ثالثًا: الأمر والنهي.

يندرج أسلوبا الأمر والنهي ضمن الإنشاء الطلبي، و"هو ما يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب"[1]، ويشترط أن يكون الأمر على وجه الاستعلاء، أي من الأعلى رتبة إلى الأدنى رتبة، و"صيغته –من المقترنة باللام نحو: ليحضر زيدٌ، وغيرهما نحو: أكرم عمرًا، ورُوَيْدَ بكراً– موضوعة لطلب الفعل استعلاءً؛ لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك، وتوقف ما سواه على القرينة"[2]، ويحصل الطلب بإحدى الصيغ التي أوردها القزويني في تعريفه، وهي: فعل الأمر (أكرم)، والمضارع المقرون بلام الأمر (ليحضر)، واسم فعل الأمر (رويد)، ويستدرك عليها المصدر النائب عن فعل الأمر، نحو: إحسانًا في مثل قوله تعالى: ﴿**وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ [البقرة:83]؛ ويخرج الأمر عن معناه الحقيقي إلى معانٍ مجازية يستدل عليها بقرينة دالة، وهي في الأغلب إذا كان الطلب غير صادر من الأعلى رتبة إلى الأدنى رتبة، ومن أهم هذه المعاني: الدعاء، الالتماس، التمني، النصح والإرشاد، التخيير، الإباحة، التعجيز، التهديد، التسوية، الإهانة والتحقير.

ويشابه الأمرَ أسلوبُ النهي، في ضرورة حصول طلب الكف عن فعل الأمر استعلاءً، و"للنهي حرف واحد وهو (لا) الجازم في قولك: لا تفعل؛ والنهي محذو به حذو الأمر في أن أصل استعمال لا تفعل، أن يكون على سبيل الاستعلاء"[3]؛ ويخرج النهي عن معناه الطلبي الحقيقي إلى معانٍ مجازية إذا وجد قرينة دالة، وتشبه المعاني المجازية للأمر.

---

(1) عتيق، في البلاغة العربية (ص70).

(2) القزويني، الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة (ص103).

(3) السكاكي، مفتاح العلوم (ص429).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بلغ تعداد أساليب الأمر في الخطب الحجّاجية واحداً وعشرين أمرًا، تسعة أوامر منها وردت في النصوص: القرآنية، والشعرية، التي استشهد بها الحجّاج على كلامه، وله خطب عديدة خلت من الأمر والنهي.

ومن أفعال الأمر التي في خطبة البصرة، حيث كانت بدايتها تشخيص لبعض عيوب العراقيين، كابتعادهم عن العلم، وتكاسلهم عن الصلاة المفروضة، ويحثهم فيها على ضرورة التغيير، ويحذرهم فيها من الله، فيأمرهم بقوله: "ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منها البر والفاجر؛ ألا وإن الآخرة أجل مستأخر، يحكم فيها ملك قادر، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أنكم ملاقوه ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذي أحسنوا بالحسنى"[1].

الملاحظ في هذه الخطبة أنها تبدأ بالموعظة وتنتهي بها، وأسلوبا الأمر الواردان في الخطبة (اعملوا، واعلموا) يحثان على ضرورة العمل والجد في الدنيا، وعدم الاتكال على ما كفى الله به عباده، ولكن مع استشعار مراقبة الله، للتوقف عند معصيته، فالعبد ملاقٍ ربه لا محالة، وسيحاسبه على كل أعماله، ويأمرهم ثانيًا أن يعلموا بهذا اليوم.

وفي خطبة أخرى يَنْعى فيها عبدالملك بن مروان، ويعلن على الناس انتقال الخلافة إلى ابنه الوليد- يوظف الحجّاج خمسة من أساليب الأمر- يحث فيها على السمع والطاعة للخليفة الجديد؛ يقول مادحًا الوليد بن عبدالملك "وعهد إلى شبهه في العقل والمروءة والحزم والجلد والقيام بأمر الله وخلافته، فاسمعوا له وأطيعوه"[2]، وسبّق فعل الأمر بسرد مناقب الخليفة الجديد ومدى أهليته للقيادة، ومن أجل هذه المناقب يأمرهم بأنْ يسمعوا ويطيعوا له، وهذا الأمر حقيقي يأتي على سبيل الإلزام، ويأتي الأمران متتاليين يكملان بعضهما، وحتى لا يكون السمع دون الطاعة، بل الأمران سواء؛ وختم الحجّاج فقرته بالأمرين تأكيدًا عليهما، وليكونا أبعد عن النسيان، وكأنَّهما جوهر الخطبة.

ثمّ يبدأ فقرة جديدة يفتتحها بتنبيه الناس بالنداء، ويتلوه أمرٌ تحذيري " أيها الناس، إيّاكم والزيغ، فإن الزيغ لا يحيق إلا بأهله"[3]، فيأتي الأمر هنا بصيغة اسم فعل الأمر (إيّاكم) الذي معناه: احذروا أو ابتعدوا، وعلى الرغم من كونه أمرًا حقيقيًا من الأمير، إلا

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\283).
(2) المرجع السابق، ج2\284.
(3) المرجع نفسه، ج2\284.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنَّه يحتمل أنْ يكون تحذيرًا في الوقت ذاته؛ ومما يزيد هذا التحذير قوة وقوعه بعد التنبيه مباشرة.

وبعد هذا الأمر التحذيري الذي يفيد الابتعاد عن الزيغ، يعني: الميل عن الحق، يوضح الحجّاج للعراقيين أنَّه خبير بهم، وأنَّه الوحيد القادر على قيادتهم؛ لأنَّه يعرفهم حقًا.ويختم خطبته مرة أخرى باسم فعل الأمر ذاته مكررًا مرتين، فيقول: " ورأيتم سيرتي فيكم، وعرفت خلافكم وطيبكم، على معرفتي بكم، ولو علمت أن أحدًا أقوى عليكم مني، أو أعرف بكم ما وليتكم؛ فإيّاي وإيّاكم، من تكلم قتلناه، ومن سكت مات بدائه غمًا"[1]، فالأمر الأول (إيايّ) يحذرهم فيه من شخصه العالم بهم، وكأنَّه يقول: لأنَّي أعرفكم احذروني، والأمر الآخر (إيّاكم) فيحذرهم فيه من ذواتهم، وكأنه يقول: احذروا أنفسكم المجبولة على الفوضى والعبث.

نلاحظ أنَّ نهاية هذه الخطبة مكثفة الأوامر، ففي برهة من الزمن استعمل الحجّاج خمسة أوامر: اثنان في نهاية فقرة، واثنان في نهاية الخطبة، وأمر واحد بعد التنبيه بالنداء، وهذه دراية من الخطيب الذي أراد ألا تُنسى هذه التعليمات، وهذا التكثيف شكّل ضغطًا نفسيًا على المستمعين، وخصوصًا مع الضمير المنفصل (إيّا) الذي يحوي على ضغطة صوتية عند النطق به.

ومن الأوامر التي وردت في النصوص التي استشهد بها الحجّاج في خطبه، قوله في خطبة له بالبصرة: "قال الله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن:16]؛ فهذه لله، وفيها مثوبة، وقال: ﴿**وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا**﴾ [التغابن:16]، وهذه لعبد الله، وخليفة الله، وحبيب الله، عبد الملك بن مروان؛ أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد، فأخذوا في باب غيره؛ لكانت دماؤهم لي حلالًا من الله"[2]؛ وهذه الأوامر جاءت في آية واحدة من سورة التغابن، يقول الله تعالى﴿**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(16)**﴾. [التغابن]، فطنة الحجّاج وحاجته إلى قوة إلزامية ترغم الرعية على السمع والطاعة للخليفة الأموي، دفعته إلى استعارة أسلوب أمر من القرآن الكريم؛ الذي تعتبر أوامره طاعة وفريضة، يثاب

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، (ج2\284،285).

(2) المرجع السابق ج2\276.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عليها المسلم، كما أنَّ تركها معصية تستوجب العقاب؛ وجاءت أوامر السمع والطاعة معطوفة وتالية للأمر بتقوى الله، وكأنَّ هذه الأوامر الثلاثة متلازمة، وهذا التلازم يزيد من قوة الأمر –أيضًا– ولم يكتفِ الحجّاج بجبروته على العراقيين ليلزمهم بالسمع والطاعة، بل استزاد بالأمر الرباني.

وفي خطبة أخرى للحجّاج بن يوسف الثقفي حوت على أسلوب أمر واحد وهذه الخطبة من كلامه الذي كان يعظُ الناس فيه، ذكّر الناس في هذه الخطبة بعدم الركون إلى طول الأمل في الدنيا، وضرورة ذكر الله ومناجاته، وأنَّ الدنيا دار فانية لا محالة، وجاء النهي هنا منسجما مع معاني الموعظة، فهو ينهاهم عن الانشغال بالحياة الدنيا عن الآخرة، وحمل أسلوب النهي معنى النصح والارشاد " فلا يغرّنّكم شاهد الدنيا، عن غائب الآخرة، واقهرُوا طول الأمل، بقصر الأجل"[1] وكأنَّه يخبرهم أنَّ الآخرة موجودة رغم غيابها عنهم؛ وكان بإمكانه أنْ يقول: لا تنسوا اليوم الآخر، ولكن في هذه الحالة لن يتسنى له أنْ يحذرهم من الاغترار بالدنيا، بل شمل أسلوب النهي (لا يغرّنّكم) النهي مع التذكير بالآخرة.

وبالطريقة نفسها جاء أسلوب الأمر الذي يفيد النصح والإرشاد "واقهرُوا طول الأمل، بقصر الأجل"، فكان بإمكانه أنْ يأمرهم بتذكر الموت، ولكنَّه أمرهم بتبديد المتعة بالدنيا بذكر الموت، وإنَّه في كلتا الحالتين: النهي والأمر، جاء بمعادلة من طرفين وربط بينهما بالنهي أولاً، ثمّ بالأمر أخيرًا.

يبدو جنوح الحجّاج عن استعمال أساليب الأمر والنهي في خطبه واضحًا، فتقديري أنَّ الشخص المتسلط ترتفع نسبة هذه الأساليب في كلامه، ولكن في حالة الحجّاج العدول إلى ألفاظ التهديد والوعيد، والقبضة الحديدية سد مسد الأوامر والنواهي؛ فمَن أفعالُهُ في أهل العراق مصدقةٌ لتهديده ووعيده لا يركن إلى مثل هذه الأساليب؛ فيصبح حالة الرعية أدعى إلى الاستقامة، ونبذ الخيانة دون الحاجة إلى سماع أمر أو نهي. فهو يؤثر الأفعال لا الأقوال، ويكثر منها، ولا يؤثر الأقوال ويقلُّ منها، وكان العراقيون يشاهدون بطشه وعقابه، فأغنى ذلك عن ترداد الأمر والنهي.

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\289).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الرابع

الأسلوبية البلاغية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الرابع: الأسلوبية البلاغية

المبحث الأول: أسلوبية التشبيه

إذا أردنا أن نقف على دلالة التشبيه وقيمته بين أساليب الكلام وجب علينا أنْ نرجع إلى البلاغة العربية؛ المَعِين الأول للأسلوبية لنتعرف إلى مفهوم التشبيه وقيمته في البيان العربي.

والتشبيه لغةً: التَّمْثِيلُ[1]، وعُرِّف هذا الفن عند البلاغيين القدامى بأنَّه "صفة الشيء بما قاربه وشاكله، ومن جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إيّاه، ألا ترى أنَّ قولهم "خدٌّ كالورد" إنَّما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها"[2].

ويعرّفه الخطيب القزويني بقوله: "التشبيه: هو الدلالة على مُشاركة أمرٍ لآخر في معنى"[3]، وعرّفه عبدالعزيز عتيق–وهو من المعاصرين–: "التشبيه: بيان أنَّ شيئاً أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر، بأداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو مقدرة، تقرّب بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه"[4]؛ والتعريفات قديمها وحديثها تدور في الدائرة نفسها، وهو وجود طرفين أو أطراف يجمع أمر بينها.

ولأنَّ الخطبة هدفها الإقناع، فإنَّ الخطيب البارع يعمد إلى التشبيه لتقريب صورة الشيء إلى ذهن المتلقي، وذلك بذكر مشبه به يعرفه السامعون، ويعايشونه في بيئتهم، كتشبيه الله –سبحانه وتعالى– الذين يحملون التوراة دون أنْ يعملوا بما فيها بالحمار المحمل بالكتب، وذلك في قوله –جلَّ جلاله–:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

[الجمعة:**5**].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب (شبه)(ج13\503).

(2) القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (ج1\455).

(3) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (ص147).

(4) عتيق، علم البيان (ص62).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بلغت التشبيهات في خطب الحجّاج اثنين وعشرين تشبيهًا، وخلا اثنا عشر تشبيهًا من أداة التشبيه، وكانت ستة بأداة التشبيه الكاف، وثلاثة تشبيهات بكأنَّ، وتشبيهان بمثل وأشبه.

وخطبته حين ولي العراق اشتملت على ستة تشبيهات؛ وقد استهل الخطبة بالتشبيه، المتضمن في التناص مع الشعر، وهو قوله[1]:

أنا ابنُ جَلا وطَلّاعُ الثَّنايا متى أضَعِ العِمامةَ تَعْرِفوني

جعل الحجّاج من نفسه أحد طرفي التشبيه، فهو يشبه نفسه بابن جلا، أي الصبح لأنَّه يجلو الظلمة، والمراد المنكشف المشهور الأمر، أي: أنا الظاهر الذي لا يخفى، وعطف مشبهًا به ثانٍ على الأول، وهو قوله: طلّاع الثنايا: وهي الطريق في الجبل، يريد أنَّه جَلد ركّاب المشاق، أو الذي يَعْلُو الأُمور فيَقْهَرُها بمعرفته وتَجارِبِه وجَوْدةِ رأْيِه.

وتشبيه الحجّاج نفسه بالصبح دلالة منه على انتهاء عصر الظلمة وإيذانًا ببداية عصر مشرق بدلالة الشمس المشرقة صباحًا؛ وتصريحًا منه على جلاء سياسته ووضوحه، وتعليم لأهل العراق بضرورة الحذر من حياكة الفتن.

ثمَّ يجعل العراقيين الثنايا، أي أنَّهم كالطريق الجبلية الوعرة، التي يسقط في صعوبتها الإنسان البسيط وعديم الخبرة، ولكنَّه يصف نفسه بصيغة مبالغة وهي (طلّاع)، كناية عن جلده وتحديه للصعب.

وأفاده هذا التشبيه اختصار المعاني الكثيرة في صورة واحدة، فطالما وقّرَ المعنى المتحصل من التشبيه، وأغنى الحجّاج عن قول الكثير من الكلمات، وكون التشبيه محمولاً في بيت شعر يجعل معانيه بارزة، والشعر يشد العربي لسحره؛ والاستهلال بالتشبيه دلالة على براعة الحجّاج في افتتاح خطبته؛ ويعبر عن البداية الواضحة كبياض الصبح في حكمه، فبراعة الاستهلال من أخصّ أسباب النجاح في الخطبة.

(1) انظر: صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\274).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويخاطب الحجّاج العراقيين في هذه الخطبة بتشبيهاتٍ متتالية، وهي قوله:

"أما والله لألحونَّكم لَحْوَ العصا، ولَأَقْرَعنكم قَرْع المروة، ولَأَعْصِبَنكم عَصْبَ السَّلَمَة، ولَأَضْرِبَنّكم ضَرْبَ غَرَائب الإبل"[1].

وهذه التشبيهات غرضها تقرير حال العراقيين –وهم المشبه– والتأكيد عليها، في حال لم ينزلوا عند أمر الحجّاج، واستمروا بالفتن، وحذف أداة التشبيه ساعد على إيجاز جملة من العقوبات، وألوان من العذاب سيتجرعها المخالفون، فاختار لهم: لحو العصا: أي قشرها، وما عني إلا سلخ الأبدان؛ أو يجعلهم قرعان دون شعر كالمروة وهي حجارة بيضاء ملساء؛ أو عصبًا كعصب السلمة، وجاء في اللسان "عَصَبَ الشجرةَ يَعْصِبُها عَصْباً: ضَمَّ ما تَفَرّقَ منها بحبل، ثم خَبَطَها ليسقط وَرقها"[2]، والسَّلَمَةُ: "شجرة ذاتُ شَوكٍ، ويَعْسُر خَرْطُ ورَقها، لكثرة شوكها"[3]، فعنى بذلك الحبس مع الضرب حتى يتناثر اللحم دون العظم؛ أو ضربًا كغرائب الإبل، "قال ابن الأَثير: هذا مَثَلٌ ضَرَبه لنَفْسه مع رعيته يُهَدِّدُهم، وذلك أَن الإبل إذا وردت الماء، فدَخَلَ عليها غَريبةٌ من غيرها، ضُرِبَتْ وطُرِدَتْ حتى تَخْرُجَ عنها"[4].

"وهو يعطف التشبيهات بعضها على بعض، ويصل العقاب بأخيه، لتخويفهم وحَلِّ رباطة جَأْشهم، وربما جمع هذه الأشكال من التعذيب على واحدٍ، أو فرقها في جماعة العراقيين كلٌّ بنصيبه من الفتنة والشر.

وأقام الحجاج صوره على التشبيه بالفعل المطلق، وهو يحمل تجسيدًا وتأكيدًا وتفصيلًا للمشبه، والصور منتزعة من بيئتهم القريبة منهم، لتكون أسرع إلى فهمهم وأدخل في تخويفهم وأشد تأثيرًا في نفوسهم.

وصور الحجاج حسيّة فيها تجسيم للحقائق، وحشد من التهويل يقذفها الخيال الجبار حممًا مشتعلة، واتكاء الحجاج على حسية التصوير، يسوّغه أنّ الخطبة من سماتها الوضوح، والحسّ مما يتشارك فيه جميع الناس ويسهل فهمه وإدراكه، وهو أنفذ

---

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\276).

(2) ابن منظور، لسان العرب (عصب)(ج1\603).

(3) المرجع السابق (سلم) 12\296.

(4) المرجع نفسه (غرب) 1\647.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى النفس والعقل من الصور العقلية المجردة، لاسيما إذا انتزع التمثيل من البيئة الحسية القريبة"[1].

ويستمر الحجّاج في خطابه مع العراقيين باللهجة نفسها، فيصل التشبيهات الأربعة السابقة بتشبيه خامس:

" فإنَّكم لكأهل قرية ﴿كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[النحل:112]"[2].

وهذا تشبيه على طريقة الاقتباس التناصي، فالمشبه به صورة مركبة حكاها القرآن الكريم، ليضع المعنيين بصورة حاضرة، وأحياها القرآن في نفوسهم، فالحجّاج يشهدهم بنص يحبونه، وقريب لأذهانهم، ويطلع هذا التشبيه العراقيين على مستقبلهم، ويجعلهم في حرية لرسمه، فإمّا أن تكونوا كأهل هذه القرية فتستحقون العنت، أو تستقيموا لتستقر الطمأنينة.

"وقد تشكلت عناصر هذا التشبيه في مجموعة من الثنائيات سنوضحها في الجدول التالي[3]:

جدول (4.1): التشبيهات الثنائية في تناص الحجّاج

المشبه	أداة التشبيه	المشبه به
العراق	الكاف	القرية
أهل العراق	الكاف	أهل القرية
جحود أهل العراق بأنعام ولاتهم وخلفائهم	الكاف	كفر أهل القرية بأنعام الله
عقاب الحجاج	الكاف	عقاب الله عز وجل
الجوع والخوف	الكاف	الجوع والخوف

(1) أبو ندى، طبقات النص (27).

(2) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\276).

(3) بلخيري، البيان في خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي (ص50).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذا التشبيه يقودنا إلى حضور القرآن في نفس الحجّاج، الذي اشتغل به واعتنى به أيما عناية، ويدل على فطنته بالاحتجاج بآيات القرآن الكريم لإفحام الخصوم، وحسن تخليصه للحجج؛ والملاحظ أنَّ الحجّاج استمر في خطاب العراقيين قرابة أربعة الأسطر بالتشبيهات، التي تدل على اتساع معجمه اللغوي وتنوعه بتنوع البلاد التي يرتادها، ودليل قدرته على التعبير عمّا في نفسه، في صور يستطيع استحضارها وقت الحاجة، كما أنَّه يخاطب الناس بما يفهمونه بالإشارة دون التطويل في الشرح.

وفي خطبة أخرى للحجّاج، انهال بها على أهل الكوفة بالشتائم لسماعه جلبة في السوق يراد من ورائها فتنة، وقد وظف فيها التشبيه لتنسجم مع السياق الحاد في الخطاب، فيقول:

" يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، وبني اللَّكيعة، وعَبيدَ العَصَا، وأولادَ الإماء، والفَقْع بالقَرْقَر "[1].

يأتي التشبيه في كلامه متساوقًا مع طريقته في التحقير، فبعد أنْ يضمهم لخانة الرق والعبودية، يشبههم بالفقع الذي ينبت بالقرقر، والفقع: الأَبيض الرَّخْو مِنَ الكَمْأَة التي تنبت من الأرض، وَهُوَ أَرْدَؤُها، والقرقر: الأَرض الْمُسْتَوِيَةُ[2]، وَيُقَالُ أَيضاً: أَذَلُّ مِنْ فَقْعٍ بِقَرقَرٍ لأَنَّ الدَّواب تَنْجُلُه بأَرجلها؛ فوجه الشبه يدل على الإنحطاط والمكانة السفلية التي يتبؤها أهل العراق.

وهذا التشبيه من أساليب الحجّاج ليبث معاني الهزيمة عند المشبهين، ويحطم نفس الخصوم، ليجعلها كالمتاع الحقير تدوسها الدواب، كالفقع الذي لا حول له ولا قوة، وفي هذا إشارة إلى هوان أمرهم عند الحجّاج، وأنَّ البطش بهم أمر يسير.

ومع تشبيه بديع آخر في نفس الخطبة، يقول فيها الحجّاج:

"وإنَّما مثلي ومثلكم ما قال عمرو بن برَّاق الهمداني:

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم!

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\277).

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب: (فقع)(ج8\255)، و(قرر)(ج5\85).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفًا حميًا تجتنبك المظالم"[1].

يجمع المشبهين معًا، ثم على طريقة التناص مع الشعر يشبههم بالصورة الشعرية التي قالها الشاعر الهمدانيّ، وهذه الصورة حملت مقاصد أسقطها الخطيب على المشبهين، فالحجّاج ينفي عن نفسه العدوان بظلم بقوله: "وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم"، وإنَّما هو يعمل بردة الفعل، ونظام البادئ أظلمهم، ولا يبدأ بالهجوم إلا إذا قامت أسبابه، وأصاب الحجّاج بهذا مدحًا وهجاء، وأمَّا في البيت الثاني فيجمع الحجّاج لنفسه –وهو أحد المشبهين– مجموعة من الفضائل والخصال المحمودة، فالوقاية من الظلم تتمثل في أنْ يجتمع في الشخص ثلاثة أمور، الأول: القلب الذكي، وهو سريعُ الفِطْنَةِ؛ ثانيًا: الصارم، وهو "السيف القاطع"؛ وثالثًا: الأنف الحمي، يقال: "فَحَمِيَ مِنْ ذَلِكَ أَنَفاً، أَي: أَخَذَتْه الحَمِيَّة، وَهِيَ الأَنَفَة والغَيْرة"[2]، وهو يقصد بذلك كلِّه نفسَه؛ وأمّا المظالم التي يجتنبها الحجّاج فيقصد بها خصومه.

وينهي خطبته بتشبيه يهدد به مفتعلي الفتن، يقول: " والله لا تقرع عصًا عصًا إلا جعلتها كأمس الدابر".

ومن أجل هذا المعنى الذي حمله التشبيه أقام الحجّاج خطبته، فسماعه أصوات التكبير والجلبة بالسوق أثار حفيظته من دواعيها، فالعراقيون عند الحجّاج أهل فتن وإرجاف، وهذه الفتن كنّى عنها بقرع العِصِي (لا تقرع عصًا عصًا)، والمشبه هنا هو ما سيفعله الحجّاج مع الفتنة، أي: الأطراف المتنازعة، والمشبه به هو أمس الدابر، أي "الماضي لا يرجع أبدًا"[3]، ووجه الشبه الفناء.

وللحجّاج مع الشاميين، ومع الخليفة الأموي أسلوب مغاير في تشبيهاته، فهو يوظفها لتزيين صورتهم، ولبيان مقدار حالهم وتقريرها؛ فيخاطب أهل الشام: " يا أهل الشام، أنتم الجُنَّة والرِّداء، وأنتم العُدَة والحِذَاءُ".

فهذا التشبيه غرضه بيان منزلة أهل الشام، وأهل الشام يعلمون المنزلة المرموقة التي يحتلونها في قلب الحجّاج، ولكنَّ الخطيب أراد أن يظهر لهم إلى أي حدٍ وصل

---

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\277).
(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب: (ذكا)(ج14\287)، و(صرم)(ج12\335)، و(حما)(ج14\199).
(3) المرجع السابق (دبر)(ج4\270).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تقديرهم، وأن يقر ذلك في نفوسهم، ومن جانبٍ آخر هو تزيين لصورة الشاميين أمام العراقيين، في خطبةٍ سمعها كلا الفريقيْن من هذا الأمير الأموي.

كما أنَّ اختفاء أداة التشبيه زادت التشبيه بلاغةً، بأنْ جعلت أهل الشام – المُشبهين– هم أنفسهم الجُنَّة وهي: مَا واراكَ مِنَ السِّلاح واسْتَتَرْتَ بِهِ مِنْهُ. يُقَالُ: اسْتَجَنَّ بجُنَّة أَي اسْتَتَر بسُتْرة، والرداء أي: السَّيْفُ الذي يضرب به العُصاة؛ كما أنَّهم العُدَّةُ مِنَ السِّلَاحِ، والحِذَاءُ[1] المصاحبون له بمعركته في تثبيت أركان الدولة في العراق.

وعطفًا على التشبيهات التي اتكأ فيها الحجّاج على التناص، تشبيه يماثل في أغراضه البلاغية التشبيهيْن الأسبقيْن، وطرفيْ التشبيه –أيضًا– ولكنَّ الطرف الثاني – المشبه به– عبارة عن تناص أدبي اقتبسه الحجّاج من شعر النابغة الذبياني، وهو قوله[2]:

هُمُ دِرْعِي الَّتِي اسْتَلْأَمتُ فِيهَا إِلَى يَوْم النِّسار وهم مِجَنّي[3]

وأوجه الشبه في التشبيهات التي كان المشبه فيها أهل الشام تدور معانيها في دائرة واحدة، فهم قوته المتمثلة في السلاح، ووقايته المتقدمة المتمثلة بالدرع والجُنة والرداء، ومن ناحية أخرى فإنَّ هذه التشبيهات تكشفُ عن انزياح استثنائي في شخصية الحجّاج الصلبة ذات الأنفة والكبرياء، فمن هذه التشبيهات نرى حجّاجًا آخر، يعلل سبب بقائه ونجاحه في محاربة أهل الفتن بقوة أهل الشام، حامية الأمويين؛ ولم نبصر الأنا الحجّاجية كالتي خاطب بها خصوم الدولة، والحجّاج يقر حقيقة تاريخية بأنَّ أهل الشام هم درع الدولة، ومن أسباب قوتها وبقائها.

والقراءة التحليلية لأسلوبية التشبيه عند الحجّاج بن يوسف الثقفي، تظهر أنَّ التشبيهات من مقتضيات الأسلوب، التي تبرز قدرة المبدع على تقوية المعاني بطريقة فريدة؛ لذلك استغل الحجّاج –وهو أفصح أهل زمانه– هذا الفن، وطوّعه لتأكيد معانيه، وإبراز الحقائق؛ كما أصبح التشبيه منطلقًا يهاجم به خصومه، ورسائل تهديد ووعيد يبثها الحجّاج، ويستقبلها الخصوم، ويقرأونها على الوجه الذي أراده الخطيب، مستعينين بذوقهم

(1) ابن منظور، لسان العرب (جنن)(ج13\94)، و(ردي)(ج14\317)، و(عدد)(ج3\285)، و(حذا).
(2) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\281).
(3) الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، (ص138).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العربي؛ وبذلك ينسجم أسلوب الحجّاج في التشبيه مع منظومة التهديد والتخويف التي بها وسمت خطب الحجّاج بن يوسف.

تميّز الحجّاج بأسلوبه في التشبيهات بأنَّه اختصر الشرح الطويل، والإبحار في التفصيل، فالرماني يجعل التشبيه في باب الاختصار[1]؛ وجاء التشبيه مؤكداً نمط الخطب القائمة على الحوار المشفوع بالأدلة، لتأكيد الحقيقة والإقناع بها؛ وكأنَّه بتشبيهاته ينشط خيال المستمع، ويترك له ميداناً للفهم والاستنتاج.

والملاحظ في بعض الخطب مخاطبة الحجّاج جمهوره بلغة التشبيهات، فقد تدوال تشبيهات متتالية، شغلت زمنًا ليس بقصير من الخطبة، ويبدو أنَّ هذا التكثيف في استعمال التشبيه هدفه المبالغة في تجلية كلامه للناس، فالتشبيه البليغ كما يقول أبو الحسن الرماني "إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف"[2]، فدأب الحجّاج على أن ينقل المتلقي من السماع إلى الإحساس، أدركها الإنسان العربي في بيئته، وهذا الأسلوب "تجسيم للحقائق على خطّة الجاهليّين، وحشد للصُّور التّهويليّة التي يقذفها الخيال الجبّار حُممًا مشتعلة"[3]؛ وبهذا يصدق الحجّاج عندما شبه نفسه بالصبح، أي أنَّه الظاهر المنكشف.

وشغل التناص حيزًا في تشبيهات الحجّاج، فواحد من التشبيهات كان المشبه به مقتبسًا من القرآن الكريم، وثلاثة من الشعر؛ وبدا هذا الأسلوب ذا أثر كبير على المتلقين، فللقرآن قدسية عند المسلمين، والاحتجاج به يقطع الأقوال؛ والشعر العربي كلام يترنم به العرب في جميع أحوالهم، وصوره دائمة الحضور في حياتهم، وحمل مآثر يفتخرون بها؛ والحجّاج استراح من عناء رسم صورة للمشبه به، فجاء بصور جاهزة ذات أثر على المستمع.

ودخول التناص في التشبيه يدل على قدرة الحجّاج، في استحضار النصوص بسرعة، وبديهة، وتوظيفها في السياق على وجه حسن.

---

(1) انظر: القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (ج1\456).

(2) الرماني، النكت في إعجاز القرآن (ص81).

(3) الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (ص367).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني: أسلوبية المجاز

يكتنز المجاز الكثير من الدلالات غير المباشرة، ومجرد مشاهدتها يطرح في النفس كل ما تختصره هذه الأيقونة من معانٍ وصور؛ وهذا الاختصار أو الإيجاز من بلاغة المجاز، ويقول سيبويه بأنَّ المجاز يؤتى به "على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطَب بالمعنى"[1].

ويعرف المجاز لغةً بأنَّه التجاوز، من جاز الشيء، "جازَهُ يَجُوزُه إذا تعدَّاه وعَبَرَ عَلَيْهِ"[2]؛ أمّا المجاز في الألفاظ، التي ينقل معناها الأصلي إلى معنى آخر غيره.

عرّف الإمام الجرجاني المجاز أنَّه: "كلُّ كلمة أريد بها غيرُ ما وقعت له في وَضْع واضعها، لملاحظةٍ بين الثاني والأوّل، فهي مجاز"[3]، والمقصود بالملاحظة التي اشترطها الإمام الجرجاني للعدول باللفظ من معنى لآخر هو: القرينة الدالة، والقرينة هذه تعليل لوقوع المجاز، ففي قوله تعالى: ﴿**وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ**﴾[الشعراء:84}، يقصد باللسان في الآية الكريمة (الذِّكر الحسن)، بقرينة اللسان الذي هو آلة للذِّكر؛ وهذه الآلة هي الملاحظ بين اللسان والذِّكر.

واقترب مفهوم المجاز عند السّكاكي في مفتاحِهِ من تعريف الجرجاني، فيريد بالمجاز: "أن تعدي الكلمة عن مفهومها الأصلي بمعونة القرينة إلى غيره لملاحظة بينهما. ونوع تعلق"[4]؛ ويضرب مثلاً: باليد، ويريد بها النعمة، وهي موضوعة للجارحة المخصوصة لتعلق النعمة بها، من حيث أنها تصدر عن اليد.

ويعرف السيد أحمد الهاشمي المجاز: "باللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقةٍ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي، والعلاقة: هي المناسبة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، قد تكون (المشابهة) بين المعنيين، وقد

---

(1) سيبويه، الكتاب (ج1\212).

(2) ابن منظور، لسان العرب (جوز)(ج5\328).

(3) الجرجاني، أسرار البلاغة (ص351).

(4) السكاكي، مفتاح العلوم (ص473).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تكون غيرها. فاذا كانت العلاقة (المشابهة) فالمجاز (استعارة) ، وإلا فهو (مجاز مرسل) والقرينة: هي المانعة من إرادة المعنى الحقيقي"[1].

ويعد المجاز من مظاهر حيوية اللغة، التي توظف اللفظ الواحد على أكثر من وجه، "وإنَّكَ لَتجِدُ اللفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد حتى تراها مكرّرة في مواضعَ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأنٌ مفردٌ، وشرفٌ منفردٌ، وفضيلةٌ مرموقة، وخِلاَبةٌ موموقة، ومن خصائصها التي تُذكر بها، وهي عنوان مناقبها، أنَّها تُعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تُخرجَ من الصدَفة الواحدة عِدّةً من الدُّرَر، وتَجْنِيَ من الغُصْن الواحد أنواعاً من الثَّمر"[2].

والذخيرة المعجمية الوافرة من أقوى ما يتسلح به المبدع حتى يعبر عمّا يشاء بطريقة المجاز، فمعرفة كنه المفردة في المعجم يساعد على تحويرها في قالب استعاري مفيد؛ وكذلك الأمر بالنسبة لمن يرصد المجازات داخل النص فلا بد له من التبحر بين جنبات المعجم لكشف بلاغة المجاز بفضل العلم بكلام العرب؛ ولهذا يعد المجاز دليلاً على مرونة اللغة، وتعدد مسالك التعبير بها، وعلماء اللغة فهموا أنَّ المجاز "صيغة للتعبير يصطنعها المدرك لأسرار اللغة، ومن يقيس على سنن العرب في كلامها"[3]، فالمبدع بإمكانه استحداث معانٍ جديدة من خلال المجاز.

وتأثير المجاز على المتلقي يتفاوت حسب قوة العلاقة بين أطراف التشبيه، فتزداد قوته كلما كانت العلاقة غريبة، أو غير منطقية، فالمجاز يحصل عند "الإسناد النحوي بين عناصر لا يكون بينها إسناد في عرف الواقع"[4]، وفي أربع عشرة خطبةً للحجّاج أحصى الباحث ستة وثلاثين مجازًا، ما بين المجاز المرسل والاستعارات.

وحملت مجازات الحجّاج صورًا لا تخلو من تقريع ووعيد لخصومه، ومنها على سبيل المثال: خطبته حين وليَ العراق، فقال: "يا أهل الكوفة، أما والله إنِّي لأحمل الشرَّ

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة (ص290-291).

(2) الجرجاني، أسرار البلاغة (ص42-43).

(3) معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز: دراسة في المجاز الأسلوبي واللغوي (ص282).

(4) عبداللطيف، الجملة في الشعر العربي (ص7).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بحمله، وأحذوه بنَعْله، وَأجْزِيه بمثله، وإنِّي لأرى أبصارًا طامحة، وأعناقًا متطاولة، ورؤوسًا قد أيْنَعَتْ وحان قِطافُها"[1].

بعد أن استهل الحجّاج خطبته بالشعر، انهال على العراقيين بخمسة مجازات متتالية، وهي:

"إنِّي لأحمل الشرَّ بحمله" استعارة مكنية، حيث شبه الشر بالمادة التي تحمل، حيث حذف المشبه به وترك (الحمل) وهو من لوازم المادة، وهذه الرسالة الموجهة لأهل الكوفة مفادها أنَّ الأمير الجديد رجل شجاع ويجابه الخطوب، لما لدلالة الحمل من تمكن الحامل ممّا يحمل على عاتقه فهو رجل شديد؛ "وتجسيد الشر وتشخيصه أدخل في التأثير وأقوى وأبلغ في التخويف والتهديد، وقد درجت العرب على تصوير الشر وتجسيده، كما ورد في بيت الحماسة:

قَوْمٌ إذا الشَّرُّ أبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ طَارُوا إلَيْهِ زَرَافاتٍ وَوُحْدَانا[2]"[3].

"وأحذوه بنَعْله[4]" استعارة مكنية، يشبه الشر بالنعل، فالحجّاج يستعير من مهنة صناعة الأحذية فعل (الحذو)؛ وهنا إشارة إلى أنَّ الحجّاج لن يسكت على المخالفين، فرد الشر قياسًا إلى شرهم يحتاج من الحجّاج الترقب والتفرغ لهم.

"وإنِّي لأرى أبصارًا طامحة" مجاز مرسل علاقته الجزئية، فذكر الأبصار وأراد أصحابها، وذكر الأبصار بالذات لأنَّ الشخص عندما يطمح إلى شيء يبصره أولًا، وأن يقول: ناس طامحة، يؤدي المعنى المقصود، لكنَّه استعار من الناس ما يناسب الطموح.

"وأعناقًا متطاولة" مجاز مرسل علاقته الجزئية، فالعنق جزء من الإنسان، فذكر الجزء وأراد الكل؛ ويرجع ترشيحه للعنق دون أجزاء الجسد الأخرى، أنَّ الأعناق أظهر شيء في الإنسان حال تطاوله.

وأسلوبا المجاز المرسل السابقان أسهما في تكوين صورة مفزعة في نفوس السامعين، وكشف حقيقة القائد الجديد بجده، وصرامته.

---

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\275).

(2) الأصفهاني، شرح ديوان الحماسة (ج1\23).

(3) أبو ندى، طبقات النص (ص18).

(4) حَذَوْت النَّعلَ بالنَّعْلِ والقُذَّةَ بالقُذَّةِ: قَدَّرْتُهُما عَلَيْهِمَا، لسان العرب (حذا)(ج14\169).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"ورؤوسًا قد أيْنَعَتْ وحان قِطافُها" تحمل هذه العبارة استعارة مكنية، حيث ذُكر المشبه (الرؤوس) وحذف المشبه به وهو (الثمار)، وترك لازمة من لوازمه وهو فعل (الينع) أي: النضج، وأيضا (القطاف)؛ "شَبَّهَ رؤُوسهم لِاسْتِحْقَاقِهِمُ الْقَتْلَ بِثِمَارٍ قَدْ أَدركت وَحَانَ أَن تُقْطَفَ"[1].

ومن جماليات الاستعارة عند الحجّاج أنَّه يزاوج بين المتنافرين، ويتقاطع عنده المتوازيان "فالعملية الاستعارية؛ بقدر ما تقيم تخلخلاً في مظاهر الواقع الراقدة الظاهرة ليفتح على أنقاضها عالمًا جديدًا، تحدث –أيضًا– تخلخلاً معادلاً على مستوى بنية الجملة، فنرى الفعل يسند إلى مالا صلة له في الحقيقة، وتوصف الأسماء بما لا يأتي لها أن توصف به في الواقع، ويضاف الاسم إلى ما لا صلة له في الطبيعة"[2]؛ وهذه الصورة فيها من السريالية، ونزع الآدمية عن أهل العراق وجعلهم مجرد مادة بلا روح يتلاعب بها دون اعتراض منها.

وبعد هذه الجملة من المجازات، يستشهد الحجّاج بالرجز ثمّ يكمل حديثه مسبوكًا بمجازات أخرى:

"إنّي واللّه يا أهل العِراق، وَمَعْدِنَ الشِّقاقِ والنِّفاق، ومَسَاوِي الأخلاق، ما يُقَعْقع لي بالشِّنان، ولا يُغْمَزُ جانبيّ كتَغْمازِ التّين، ولقد فُرِرتُ عِن ذكاء، وفُتِّشتْ عن تَجْرِبة، وجَرَيت إلى الغاية القصوى، وإنّ أميرَ المُؤمنين نثر كِنَانته بين يديه، فعَجَم عِيدانَها، فَوَجدني أمرَّها عودًا، وأصلبها مَكْسِرًا فرَماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفِتن، واضجعتم في مَرَاقِدِ الضلال"[3].

"وَمَعْدِنَ الشِّقاقِ والنِّفاق" استعارة تصريحية، صرح بالمشبه به (المعدن) وحذف المشبه (أهل العراق)، والجامع بينهما أنَّ "المَعْدِنَ مَكَانُ كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ فِيهِ أَصله ومَبْدَؤه نَحْوُ مَعْدِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ والأَشياء"[4]، فالذهب مستقر بمعدنه، وكذلك يزعم الحجّاج استقرار الخصال المذكورة في أهل العراق، كاستقرار صفات المعدن فيه لا تغادره.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب (ينع)(ج8\416).
(2) الهمص، شعر بشر بن أبي خازم دراسة أسلوبية (ص147).
(3) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\276).
(4) ابن منظور، لسان العرب (عدن)(ج13\279).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"ما يُقَعْقع لي بالشِّنان" وهذه العبارة مَثَلٌ عربي، يقال: "فلانٌ لَا يُقَعْقَعُ لَهُ بالشِّنانِ أَي لَا يُخْدَعُ وَلَا يُرَوَّعُ، وأَصله مِنْ تَحْرِيكِ الْجِلْدِ الْيَابِسِ لِلْبَعِيرِ لِيَفْزَع؛ أَنشد سِيبَوَيْهِ لِلنَّابِغَةِ:

كأَنَّكَ مِنْ جِمالِ بَني أُقَيْشٍ يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنِ"[1]

وورود هذا التركيب في النثر هو على سبيل الاستعارة التمثيلية، وقول الحجّاج: "لي" هي قرينة منعت من تأدية المعنى الأصلي للمثل، وهو ترويع الجمل بتحريك جلد يابس فيصدر صوتًا يفزع الجمل فيتحرك؛ والحجّاج ساق هذا المثل منفيًا لينفي معها حدوث الخدعة التي تفزع الجمل؛ ليدلل للسامعين على نباهته ودرايته بمجريات الأمور حوله، والسامع يعلم أنَّ الجلبة التي سيحدثها هي كقعقعة الشنان بالنسبة للحجّاج، أي أنَّ خصوم الحجّاج لا حول لهم ولا قوة.

"نثر كِنَانته بين يديه" مجاز مرسل علاقته المحلية، أطلق المحل وأراد ما يحل به، أي: أسهم الكنانة؛ وفي هذا المجاز دلالة إخلاص رجال الخليفة له، إذ يملكهم كما يملك الرامي سهام كنانته.

"فرَماكم بي" هذا التعبير البسيط يكتنز صورًا عديدة، تحملها ثلاث استعارات مكنية؛ فأمَّا الاستعارة المكنية الأولى: فيشبه الحجّاج الخليفة عبدالملك بن مروان بالرامي، حذف المشبه الرامي واستعار لازمة من لوازمه وهي: فعل الرماية؛ واستعارة مكنية أخرى شبه فيها الخصوم السياسيين بالفريسة التي ترمى بسهام الرامي، حذف المشبه الفريسة وترك لازمة من لوازمها وهي في حالة الضحية في مرمى الهدف؛ والاستعارة المكنية الأخيرة شبه فيها الحجّاج نفسه بالسهم الذي يرميه الرامي، حيث جعل من نفسه السهم الذي يجرى عليه فعل الرماية.

وهذه الاستعارات المركبة تثبت الفروسية للخليفة ومهارته في الرماية؛ وجعل الحجّاجُ من نفسه اختيار الخليفة الأقوى، والأقدر على الفعل؛ ووضع العراقيين موضع الضحية المستسلمة أمام رامٍ ماهر كعبدالملك، وسهم صلب كالحجّاج.

"واضجعتم في مَرَاقِد الضلال" استعارة تصريحية تقوم على الفعل، شبه مكوثهم وطول ملازمتهم للضلال كالنائم المستريح في فراشه.

(1) ابن منظور، لسان العرب (قعع)(ج8\286).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذه المهارات في خطبة الحجّاج شكلت بنية لغوية تركيبية ودلالية أساسية في أسلوبه، جعلت من الخطبة نصًا لغويًا متميزًا مؤثرًا في نفوس السامعين، إذ إنَّه تكاتفت وتضامت مع بعضها لتحقيق سمة الأسلوب وغرض الخطبة.

الاستعارة في خطبة الحجّاج بمكة بعد مقتل عبدالله بن الزبير –رضي الله عنه–؛ يقول الحجّاج في خطبته بعد أن ارتجت مكة بكاءً على ابن الزبير:

"ألا إن ابن الزبير كان من أحبارِ هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكنَّ بحرم الله، ولو كان شيء مانعًا للعصاة، لمنع آدم حرمة الجنة؛ لأن الله تعالى خلقَه بيده، وأسجدَ له ملائكتَه، وأباحَه جنتَه؛ فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة"[1].

" وخلع طاعة الله " استعارة مكنية، صرح بالمشبه (الطاعة)، وحذف المشبه به (الرداء)، ورمز إليه بلازمة من لوازمه وهي: فعل (الخلع)، وحمل أسلوب المجاز هنا تخويفًا لرافضي حكم بني أمية، كون طاعة الأمير من طاعة الله، ومعصيته هي معصية لله، فالأمر متعلق بحساب أخروي، وبه ضغط على المخالفين بأن شبههم بأنَّهم يرفضون طاعة الله بنفس ما تحمله صورة الخلع من شدة وعدم الراحة من الشيء المخلوع.

" ولو كان شيء مانعًا للعصاة، لمنع آدم حرمة الجنة " استعارة تمثيلية، شبه حالة اعتصام ابن الزبير بالكعبة كحالة آدم في الجنّة؛ ويعلم السامعون قصة آدم حين أُخرج من الجنّة، فالجنّة لم تعصمه من الخروج، فكيف بالكعبة، لذلك استعار الحجّاج هذا التمثيل ليرد به على من قال بأنَّ الحجّاج انتهك حرمة الكعبة، ويظهر ابن الزبير عاصيًا كآدم.

الخطبة ذات بناء قصير جدًا، كانت الاستعارة أحد بنياتها، وهي عامل مهم في صنع فضاء رحب لهذه الخطبة القصيرة –وغيرها من خطب الحجّاج– من خلال ما تحمله من صور وتشبيهات تعمل الذهن، وتجعل المستمع يتوقف ليتذوق ما يقال، فإذا كان الزمن الذي تحكى فيه الخطبة قصيرًا، فإنَّ زمن قراءتها فهمًا وتأملاً يستغرق من السامع مزيدًا من الوقت.

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\273).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أراد الحجّاج أنْ يعالج موقفًا طارئا في لحظة حرجة مع المسلمين المكلومين على حبر الأمة عبدالله بن الزبير، وكان العلاج بخطبة قصيرة انتصر فيها لنفسه، وكان من مظاهر الإيجاز في هذه الخطبة الاستعارة، التي تعد –أيضًا– إيجاز آخر، فالاستعارة بأنواعها بنية أسلوبية ثابتة في خطب الحجّاج ذات البناء القصير.

ومن استعاراته في خطبة أخرى، قوله: "يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، وبني اللكيعة، وعبيد العصا، ...أما والله لا تقرع عصًا عصًا إلا جعلتها كأمس الدابر"[1].

" عبيد العصا " مجاز مرسل علاقته المسببية، ذكر المسبب (العصا) وأراد سبب وجودها وهو (الذل)، فالعصا تسبب الذل؛ وفيه دلالة على تشريع الحجّاج لنفسه استخدام العصا مع صناع الفتن.

" لا تقرع عصًا عصًا " استعارة تمثيلية، حذف المشبه به (المشاجرات العصبية والطائفية)، ومثّل لها بمقارعة العصي، وللسامع أن يتخيل في ذهنه مضاربة الناس بالعصي، ومالها من جلبة وعواقب.

وخطبة أخرى يقول فيها: "إنَّ للشيطان طيفًا، وللسلطان سيفًا؛ فمن سقمت سريرتُهُ، صحّت عقوبتُه،...ومن استرخى لَبَبَه، ساء أدبه، إنَّ الحزم والعزم سلباني سَوْطي، وأبدلاني به سيفي... "[2].

" سقمت سريرتُهُ " استعارة مكنية، شبه السريرة بالجسد الذي تعتريه الأمراض؛ وكلمة "سريرته" بها مجاز مرسل علاقته الحالّية، أراد الإنسان وذكر ما يحل به وهي السريرة.

"استرخى لَبَبَه[3]" استعارة مكنية، شبه الإنسان الذي يسوء أدبه، بالدابة التي يتراخى الحبل الذي تشد به فتمشي بشكل أهوج، حذف المشبه به (الدابة) واستعار منه لازمة من لوازمه وهي (اللبب) الرخو، وهذا يوافق المثل: من أمن العقوبة أساء الأدب، وهذا حال من تهاون الأمير في أمرهم.

---

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\277،278).

(2) المرجع السابق ج2\278.

(3) ما يُشدُّ على صَدْر الدابة أَو النَّاقَة. ابن منظور، لسان العرب (لبب)(ج1\732).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"إنَّ الحزم والعزم سلباني سَوْطي، وأبدلاني به سيفي" استعارة مكنية شبه (الحزم والعزم) بإنسان يسلب ويبدل؛ والحجّاج يكني بالحزم والعزم عن نفسه، فهما بنيتان في شخصيته.

ومن خطبته بعد دير الجماجم: "يا أهل العراق، إنَّ الشيطان قد استبطَنكم، فخالط اللحم والدم والعصب، والمسامع والأطراف، والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشَّشَ، ثم باضَ وفرَّخ،...حتى عضكم السلاح، وقصمتكم الرماح،... أو استعضدكم خالع،...، ألم تنهكم المواعظ، ألم تزجركم الوقائع؟"[1].

"إنّ الشيطان قد استبطنكم" استعار صورة لصورة، استعار انقيادهم للشيطان واستيلاءه عليهم، بأنَّه قد سكن بواطنهم وامتزج بلحمهم وأعصابهم، فهو يتكلم بلسانهم، ويسمع بآذانهم، ويبطش بأيديهم، ويتحرك بأرجلهم.

"ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ" استعارة مكنية، شبه الشيطان بالطير الذي يعشش بالمرتفعات، وهو دلالة عن حالة الاستقرار التي للشيطان في الأجسام، فالحجّاج يخبرهم أنَّ الشيطان وجد فيكم بيئة خصبة ليتزاوج وينجب شياطين صغار.

"عضكم السلاح" استعارة مكنية، شبه السلاح بحيوان مفترس، حذف المشبه به وترك لا زمة من لوازمه وهي: العض، ويحمل دلالة على حصد أرواحهم بسهولة أثناء هروبهم من المعركة.

"استعضدكم خالع" مجاز مرسل علاقته الآلية، فالعضد دلالة القوة؛ ويقصد الحجّاج بالخالع عبدالرحمن بن الأشعث الذي وضعه على رأس جيش الطواويس الموجه لمحاربة الروم، فنكث ابن الأشعث العهد وخلع بيعة الخليفة، وطلب نصرة الجيش على الأمويين.

"تنهكم المواعظ" استعارة مكنية، شبه المواعظ بالشيخ الذي ينصح الناس بالاستقامة وينهاهم عن الغي، حذف المشبه به (الشيخ) وترك لازمة من مهنته وهي المواعظ، ومثلها "تزجركم الوقائع".

خطبة أخرى: "يا أهل الكوفة، إنَّ الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف".

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\279،280).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"إنَّ الفتنة تُلْقَح بالنجوى" استعارة مكنية، شبه الفتنة بالأنثى التي تلقح؛ والنَّجْوَى: "السِّرُّ بَيْنَ اثْنَيْنِ"[1]، والحقيقة أنَّ عملية الجماع تكون سرًا بعيدًا عن الأعين؛ وهكذا يصف الحجّاج أولى خطوات الخيانة.

"وتُحصَدُ بالسيف" استعارة مكنية، شبه الفتنة بالثمر، فحذف المشبه به واستعار منه لازمة من عالمه وهي الحصاد، وتحمل دلالة على طريقة مجابهة الفتنة.

وخطبة سياسية أخرى حث بها العراقيين على السمع والطاعة للخليفة، وحذرهم من الميل عن البيعة، وخلع الطاعة، قال: " إياكم والزيغ، فإنَّ الزيغ لا يحيق إلا بأهله"[2].

" الزيغ لا يحيق إلا بأهله " استعارة مكنية، شبه الزيغ بالإنسان الذي يسيء أهله تربيته، فشره يصيب أهله أولاً؛ والزيغ هو: الميل[3].

خطبته في البصرة: "ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منها البَرُ والفاجر" استعارة مكنية، شبه الدنيا بالطعام، حذف المشبه به (الطعام)، واستعار من لوازمه (الأكل)، وهذه دلالة على أنَّه لا خسارة في الدنيا، إنَّما الربح والخسارة يكون بما يدخر للدار الآخرة.

ومع جزء من خطبة أنشأها الحجّاج رداً على فرح أهل العراق به حين أصيب في يوم واحد بموت أخيه محمد وابنه محمد، فوقف مذكرًا بأفضلية ما عند الله، وحقيقة الموت والفناء، "وايمُ الله لَيُوشِكنَّ الباقي مني ومنكم أنْ يَفنَى، والجديدُ أن يبلَى، والحيّ مني ومنكم أن يموت، وأن تدال الأرضُ منا كما أدلنا منها؛ فتأكل من لحومنا، وتشرب من دمائنا، كما مشينا على ظهرها، وأكلنا من ثمارها، وشربنا من مائها". فقد استعان بالاستعارات ليجعل هذه الحقائق ماثلة أمام العين.

"والجديدُ أن يبلَى" فشبه الإنسان الذي يولد حديثًا بالثوب الجديد، فحذف المشبه به، واستعارة لازمة من لوازمه وهو البلى، أي: ينتهي أثره، وهذا على سبيل الاستعارة المكنية.

"فتأكل من لحومنا، وتشرب من دمائنا" وشبه الأرض بالكائن الوحش الذي يأكل ويشرب، حذف المشبه به وصرح بلازمة من لوازمه وهي الأكل والشرب، وهذا من الاستعارة المكنية.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب (نجا)(ج15\308).
(2) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\284).
(3) ابن منظور، لسان العرب (زيغ)(ج8\432).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وخطبة ثانية شابهت في موضوعها الخطبة السابقة، ولكن هذه المرة فرحًا بشائعة موت الحجّاج؛ واستعان الحجّاج –أيضًا– بالاستعارات، التي منها المجاز: "كأني والله بكل حيٍّ منكم ميتًا، وبكل رطب يابسًا، ونقل في ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولًا، في ذراعٍ عرضًا، وأكلت الأرض لحمَه، ومصتْ صديدَه، وانصرفَ الحبيبُ من ولده يقسم الخبيث من ماله، إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول".

"بكل حيٍّ منكم ميتًا، وبكل رطب يابسًا" مجاز مرسل على اعتبار ما سيكون، وكذلك "أكلت الأرض لحمَه، ومصتْ صديدَه".

ومن استعارت الحجّاج في خطبةٍ وعظية: " والموت في أعناقكم"، "هذه شمسُ عادٍ وَثَمُود وقرونٍ كثيرة بين ذلك، هذه الشمس التي طَلَعت على التَّبَابعة والأَكَاسِرة، وخزائِنهم السائِرة بين أيديهم، وقصورهم المشيَّدة، ثم طلعت على قبورهم،...المحاسب الله، والصراط منصوب، وجهنم تزفر وتتوقد"[1].

" الموت في أعناقكم " استعارة مكنية، شبه الموت بالقلادة التي تحيط بالعنق، وهو تأكيد على دنو الأجل بقدر ملاصقة القلادة للعنق وإحكامها عليه.

" هذه الشمس التي طَلَعت على التَّبَابِعة والأَكَاسِرة " مجاز مرسل علاقته الملازمة، للدلالة على حقيقة وجود القوتين العظميين في الماضي. وطلوعها على قبورهم دلالة على حقيقة فنائهم، وبهذه الصورة يوضح الحجّاج سنة كونية، وهي: البدء والانتهاء لأي مخلوق.

"جهنم تزفر وتتوقد" استعارة مكنية، شبه جهنم بإنسان مكظوم الغيظ؛ وتحمل هذه الاستعارة دلالة التخويف من جزاء المعصية الوخيم.

يبدو أنَّ الموت وما يترتب بعده من حساب وجزاء شغل حيزًا من هواجس الخوف والرجاء عند أمير العراقيْن؛ صاحب الشخصية القوية، والشكيمة الجبارة، ومن خلال مواضيع الخطب التي حوت استعارات الموت يظهر أنَّ الحجّاج واجه خصومه السياسيين بالموعظة، فعندما ظهرت شماتتهم بموت الحجّاج وأخيه وابنه، كان تقريعه لهم مختلفًا، بأن أظهر الموت والقرب من الله راحة له ولأحبائه من العيش مع العراقيين؛ واستعاراته لمعاني الموت، تشكل موعظة مؤثرة على الأحياء، فبرع الحجّاج في تجسيد الموت

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\287).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتفاعلاته في الحياة الدنيا، فالاستعارة "قادرة على تصوير الأحاسيس الغائرة، وانتشالها وتجسيدها تجسيدا يكشف عن ماهيتها وكنهها، بشكل يجعلنا ننفعل انفعالا عميقا بما تنضوي عليه"[1].

وفي خطبتين قصيرتين جدًا، نصح الحجّاج بهما المسلمين بالاستقامة، والحذر من المعاصي، حيث وظف استعارتين تأكيدًا لمقالته، وليُحملهما بكثير من المعاني المفيدة. والخطبتان هما:

"امرؤٌ حاسَبَ نفسَه، امرؤ راقب ربه، امرؤ زوَّر عمله، امرؤٌ فكَّرَ فيما يقرؤه غدًا في صحيفته، ويراه في ميزانه، امرؤٌ كان عند همِّه آمرًا، وعند هواه زاجرًا، امرؤ أخذ بعِنَانِ[2]قلبِهِ كما يأخذ الرجل بخطام جمله، فإن قاده إلى حقٍّ تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كفَّه، إننا والله ما خلقنا للفناء، وإنما خلقنا للبقاء، وإنما ننتقل من دار إلى دار"[3].

أما الخطبة الأخرى فيقول فيها:

"أيها الناس، اقدَعُوا هذه الأنفس؛ فإنها أسْألُ شيءٍ إذا أُعْطِيت، وَأَعْصَى شيءٍ إذا سُئِلت، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خِطامًا وزِمامًا فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وَعَطَفها بزمامها عن معصية الله؛ فإني رأيت الصبر عن مَحَارِمِ الله، أيسَرَ من الصبر على عذاب الله"[4].

"امرؤ أخذ بعنان قلبه" استعارة مكنية، شبه القلب بالجمل الذي له عنان، حذف المشبه به وصرح بلازمة من لوازمه وهي: العنان، ويدل المجاز على السيطرة.

"فرحم الله امرأ جعل لنفسه خِطامًا وزِمامًا" وهذه استعارة مكنية أخرى تشبه السابقة معنى، وتخالفها شكلاً.

هاتان الاستعارتان الأخيرتان تقران بأنَّ النفس والقلب –وهما معنويان– مسؤولان عن الخير والشر؛ والحجّاج في استعارته جسدهما على شكل الدابّة، ولكنَّه حذف المشبه به وترك لازمة من عالمه وهي: (العنان والخطام والزمام)، وهو بذلك يجعل النفس تمشي

---

(1) قاسم، التصوير الشعري: رؤية نقدية لبلاغتنا العربية (ص81).

(2) عِنانُ اللِّجَامِ: السَّيْرُ الَّذِي تُمسَك بِهِ الدَّابَّةُ. ابن منظور، (عنن)(ج13\291).

(3) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\288).

(4) المرجع السابق ج2\288.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خبط عشواء كالناقة ما لم يسيطر عليها صاحبها بالزمام؛ وهذا دلالة على ضرورة تربية النفس، وعدم الانجرار خلف نزواتها.

وأصحاب الفصاحة كالحجّاج بن يوسف الثقفي الذين يحرصون على الإيجاز يجدون في المجاز ضالتهم، وينشدون به أنْ تبلغ كلماتهم أفهام السامعين؛ فهو "من أحسن الوسائل البيانية التي تهدى إليها الطبيعة؛ لإيضاح المعنى، إذ به يخرج المعنى متصفاً بصفة حسية، تكاد تعرضه على عيان السامع – لهذا– شغفت العرب باستعمال (المجاز) لميلها إلى الاتساع في الكلام، وإلى الدلالة على كثرة معاني الألفاظ، ولما فيها من الدقة في التعبير، فيحصل للنفس به سرور وأريحية، ولأمر ما كثر في كلامهم، حتى أتوا فيه بكل معنى رائق، وزينوا به خطبهم وأشعارهم"[1].

ويبرز المجاز سمةً أسلوبية أصيلة في خطب الحجّاج، يوجز اللفظ ويوسع المعنى ويضرب أوتار قلوب السامعين قبل أن تقرع آذانهم، وتميزت من رتابة الأسلوب إلى جديد الكلام وأفانين القول.

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة (ص290).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثالث: الأسلوبية البديعية

تعد الأساليب البلاغية من الألوان التي تُوشح بها النصوص الأدبية –شعرًا ونثرًا–، كما تضفي عليها حيوية وفاعلية، وتخرج الكلام من الرتابة والسير على نمط واحد، فالأساليب البلاغية تسير باتجاه يدعم فكرة النص، وهي عدة المبدع التي يجذب بها المتلقي، وتخرجه من تهمة إثارة الملل؛ وفي حالة الخطب يكون هدفها الإمتاع، والتأثير على المتلقي.

ويعرف ابن خلدون البديع بأنَّه: "النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق: إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك"[1]، من مقتضيات صحة استخدام أساليب البديع مطابقة مقتضى الحال، مع وضوح دلالته على المراد لفظًا ومعنى[2].

الطِبَاق والمُقَابَلَة:

الطباق: "هو الجمع بين لفظين مقابلين في المعنى" وقد يكونان اسمين، أو فعلين، أو حرفين أو اسمًا وفعلاً؛ فيكون تقابل المعنيين وتخالفهما، مما يزيد الكلام حسنًا وطرافة[3].

ومثاله قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ** ﴾ [الحديد:3].

أما المقابلة: "أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقةٍ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب"[4] ومثاله قوله تعالى: ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ** ﴾ [الأعراف:157]، والمقابلة عبارة عن طباق مركب؛ ففي الآية الكريمة طباق بين فعلين، حرفين، واسمين.

---

(1) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون (ص551).

(2) الهاشمي، جواهر البلاغة (ص360).

(3) المرجع السابق، ص366،367.

(4) المرجع نفسه، ص366،367.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتوظيف الطباق والمقابلة في خطب الحجّاج استغرق أغلب الخطب، وبعض الخطب أقامها الحجّاج على الطباق والمقابلة؛ مثل خطبته التي أنشأها عند قدومه البصرة، هدد أهلها وتوعدهم فيها، حيث يقول:

"أيها الناس: من أعياه داؤه؛ فعندي دواؤه، ومن استطال أجله، فعليَّ أن أُعَجِلَه، ومن ثقُل عليه رأسُه، وضعتُ عنه ثِقْلَه، ومن استطال ماضِيَ عُمره، قَصَّرْتُ عليه باقيه، إنَّ للشيطان طَيْفًا، وللسلطان سيْفًا؛ فمن سقَمت سريرتُهُ، صحَّت عُقُوبتُه، ومن وضعَه ذنبُه، رفعَه صَلْبُه، ومن لم تسعْهُ العافية، لم تضقْ عنه الهلكةُ"[1].

واءم الطباق عند الحجّاج نبرة التهديد التي خاطب بها أهل العراق، فطابق بين (داؤه/دواؤه) حيث نصّب نفسه طبيبًا يعالج الأمراض التي تعتري نفسيات رعيته العاصية، وهو يحمل تهكمًا واستخفافًا بالعراقيين.

والطباق الذي يليه (وضعه/رفعه)، ثمّ المقابلة (ومن لم تسعْهُ العافية/لم تضقْ عنه الهلكةُ)، كلها تأتي في إطار جلب أهل العراق إلى بيت الطاعة الأموي، فجاء الطباقان والمقابلة محملان برؤية الحاكم نحو هذه الرعية، وموضحة لسياسة الحكم بقوالب بديعية، فهو يضع يده على مكمن الخلل، ويوفر البدائل العلاجية، التي تترجم بالقسوة والقمع.

والظاهر أن الحجّاج يريد من رعيته الاستقامة، ولكنَّه لم يأمرهم بها بطريق مباشر؛ فكان لا بد لنيل مراده أن يستخدم المؤثرات الضاغطة على النفوس، فوضع المخالفين في صور متضادة وخيرهم بينها، فمن يصاب بداء خلع الطاعة؛ فالحجّاج هو المطبب، ومن اقترف ذنب المخالفة وأصبح وضيعًا، فالحجّاج يرفعه على طريقته؛ ومن رتع خارج سياسة الدولة التي تعافي الملتزم بها، فأبواب الهلكة مفتوحة؛ وعند سماع هذه الصور التي يلتقطها السامع ويعي مضمونها يعلم أنّ المطلوب هو الاستقامة.

وفي خطبة أخرى بأهل الكوفة والشام يقول الحجّاج بن يوسف الثقفي فيها:

"... وما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودتكم، زعمتم أني ساحر، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ**﴾ [طه:**69**]. وقد أفلحت، وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر؛ فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون؟"[2].

---

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\278).

(2) المرجع السابق، ج2\281.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

احتوت الخطبة على مقابلة (ما أنا بالمستوحش لعداوتكم/ولا المستريح إلى مودتكم)، وطباقا سلب بين (لا يفلح/أفلحت) و(يعلم/لا تعلمون)؛ فقد نحّى الحجّاج هذه الأساليب لصالحه وضد خصومه، ويضعهم الحجّاج في حيرة من أمرهم، فهو لا يستجلب الصراع معهم، وفي الوقت ذته لا يريد قربهم، فهو حَذِرٌ من شر كامن في نفوس العراقيين، ومطلوب من العراقيين المهادنة، ويمكن اعتبار الجملة الأولى مبادرة حسن نية من الحجّاج، ودعوة للعراقيين باغتنام هذه الفرصة، والجملة الثانية المقابلة لها، تحمل تنبيهًا للعراقيين بأنَّ الحجّاج متأهب دومًا لشر محتمل، فلا داعي لحياكة المؤامرات.

ويوظف الحجّاج الطباق ليزهو بنفسه ويتعالى على خصومه، ويزيدهم غيظًا، وذلك حين طابق بين (لا يفلح/أفلحت) و (يعلم/لا تعلمون)، فصورة الطباق الأول أثبت فيها الحجّاج الفلاحَ لنفسه، وفي الصورة الثانية يثبت العلم لنفسه وينفيه عن خصومه، وبهذا يرجح كفته بالمدح والعجب، ويقتل أعداءه كمدًا.

وجاء الخطيب بهذين الطباقين في خطبته ردًا على شبهات رددها العراقيون، فالطباق الأول يحمل ردًا على زعمهم أنَّه ساحر، والثاني ردًا على ادعائهم علم الحجّاج باسم الله الأكبر، فالحجّاج يرد على أباطيل المخالفين بطريقته الخاصة، وأخذ من كلامهم ورده إلى نحورهم؛ ليكون حجة عليهم.

وللحجّاج خطبة في البصرة أكثر فيها من توظيف الطباق والمقابلة، يقول بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: "إنَّ الله كفانا مئونة الدنيا، وأمرنا بطلب الآخرة؛ فليته كفانا مئونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا، ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون... ألا وإنَّ الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منها البرُّ والفاجر، ألا وإنَّ الآخرة أجل مستأخر، يحكم فيها ملك قادر، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أنكم ملاقوه ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذي أحسنوا بالحسنى، ألا وإنَّ الخير كله بحذافيره في الجنة، ألا وإنَّ الشرَّ كله بحذافيره في النار، ألا وإنَّ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، وأستغفر الله لي ولكم"[1].

جاء الطباق ضمن الموعظة والنصائح، وكلمات الطباق هي بؤرة تركيز الخطيب، ومحور الفكرة التي يدعو إليها، ويخدم الطباق الفكرة الرئيسة في أول الخطبة وهي

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\282،273).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاستعداد للقاء الله، فوضعه المتضادين (الدنيا/الآخرة) في السياق إنَّما ليأمرهم بالتزود لرحلة الدار الآخرة، بالطاعات وعدم الانشغال عنها بطلب ما كفله الله من رزق.

وينتقل بالطباق بين (علماءكم/جهالكم) في سياق الاستفهام التوبيخي، للتنبيه على أهمية العلم وخطورة الجهل، فهما معاول بناء وهدم الحضارات.

ويكمل وعظه بالتحذير من الدنيا والترغيب بالآخرة، ويرسم بالمقابلة والطباق صورة كبيرة تعكس أثر الدنيا والآخرة، والإحسان والاساءة؛ فيبدأ بالمقابلة بين (ألا وإنَّ الدنيا عرض حاضر/ألا وإنَّ الآخرة أجل مستأخر)، وكل جملة من جمل المقابلة ألحقها الحجّاج بشرح لطبيعة الموقفين محل المقارنة، فعَرَضُ الدنيا الحاضر؛ شرح حقيقته بطباق، فجمع بين (البر/الفاجر) وهذه حقيقة الدنيا التي يريد الحجّاج أن يرسخها في نفوس المسلمين، فمن حظها يتساوى البر والفاجر المختلفين في العقيدة.

وأمّا الأجل المستأخر فيرجع الحجّاج الملكية فيه لله الواحد القهار، وفي هذا اليوم يتمايز الخلق، وفق معيار القرب من الله، وتتحدد مصائر الطائعين والعاصين له، وهذا التمايز مشروحٌ في صور الطباق (أساءوا/أحسنوا)، (الخير–الجنة/الشر–النار)، (خيرا/شرا)، وهذه الصور الأخروية التي تعكس مرحلة الحساب والجزاء؛ تؤكد على ما بدأ به الحجّاج في بادية خطبته، من ضرورة إصلاح المرء دنياه، وادخار الصالحات.

وبلغ إعجاب الحجّاج بنفسه درجة وضع نفسه في مقام الصحابة، ففي المقابلة الواردة في حديث الرسول –صلى الله عليه وسلم– الذي استشهد به في خطبته التي تحدث فيها عن أحوال الأمراء يوم القيامة، يقول:

"يا أهل العراق، بلغني أنكم تروون عن نبيكم أنه قال: "من ملك على عشر رقاب من المسلمين، جيء به يوم القيامة مغلولةً يداه إلى عنقه، حتى يفكَّه العدل، أو يوبقه الجور". وايمُ الله إنِّي لأحَبُّ إليَّ أن أحشر مع أبي بكر وعمر مغلولًا، من أن أحشر معكم مطلقًا"[1].

ويظهر من حديثه أنَّ أهل العراق يستبشرون بتقييده يوم الحشر بظلمه للناس، وهذه الفكرة يوضحها قوله: "حتى يفكه العدل، أو يوبقه الجور"، ثم هو يحسن تخلصه من هذه الأمنية، ويصيب خصومه بمقتل، وذلك في سبكه السياق بالطباق (مغلولا/مطلقا)،

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\284).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتحميله بالرسائل المبطنة، فيفهم ضمنًا صواب سياسته في الحكم بدليل رجائه أن يحشر مع الصحابة العدول، وضمانه للنجاة يوم القيامة؛ وبها تكبر الحجَّاج على خصومه، فأن يقيد في الحديد، أفضل من حريته بصحبتهم؛ وأخيرا إشارة منه بالاستمرار بنفس السياسة معهم، ولن ترهبه أمانيهم.

ويوظف الحجّاج أسلوب المقابلة في خطبة جديدة، وضح فيها سياسة الرسول – صلّى الله عليه وسلّم– في معاملة الأنصار، وفي مقابلة أخرى رسم سياسة مخالفة للتعامل مع أهل العراق، لينهجها محمد بن الحجّاج أثناء سفر والده إلى الحج.

"أن يقبل من محسنهم –الأنصار–، وأن يتجاوز عن مسيئهم، وإني أمرته ألا يقبل من محسنكم، ولا يتجاوز عن مسيئكم"[1]، والملاحظ أنَّ استخدم نفس المقابلة مرتين ولكن مع العراقيين مسبوقة بنفي؛ وهذه المقابلة بها انتقاص من الخصوم، ورفض لتشبيههم بالأنصار، وكأنَّهم على دين مغاير لا يستحقون معاملة المسلمين.

وفي خطبة أخرى تطرق الحجّاج خلالها للحديث عن الموت ومصائر الخلق، في إطار الرد على شائعة موته، استخدم الطباق بين الشيء ونهايته، " كأنِّي والله بكلِّ حيٍّ منكم ميتًا، وبكلِّ رطب يابسًا"[2] فالطباقان في النص ينبئان عن بداية (الحياة والموت) وعن نهاية (الموت والتيبس)، وهو موقف تعليمي يجسده الحجّاج بالطباق والمقارنة لتتضح الرؤية عن الموت.

ويرد الطباق في قول الحجّاج: "والنارُ بين أيديكم، والجنةُ أمامكم، خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غناكم لفقركم، ومما في أيديكم لما بين أيديكم؛ فكأنَّ ما قد مضى من الدنيا لم يكن، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء"[3]. هذه المرة يوظف الحجّاج الطباق في الخطبة الوعظية، ففي هذه الخطبة تحدث عن اقتراب الأجل، وضرورة العمل للآخرة قبل فوات الأوان، وكان استخدامه للطباق يخدم فكرة النص، فقد ذكر (النار/الجنة) وكأنَّه يحذرهم من الأولى، ويرغبهم في الثانية. وفي الطباق الثاني (غناكم/فقركم) ينبههم لافتقار الإنسان في الآخرة للحسنات، وأنَّ الحياة فرصة للغنى منها، فالدنيا دار العمل والآخر دار الجزاء. وفي الطباق الأخير (الأموات/أحياء) يتضح أنَّ الموت مرحلة اللاعودة.

---

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\285).

(2) المرجع السابق ج2\287.

(3) المرجع نفسه ج2\287.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي موعظة أخرى يتحدث فيها عن ترويض الأنفس وتربيتها: "فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطامًا وزمامًا فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وعطفها بزمامها عن معصية الله"[1]. يقابل الحجّاج بين صورتين استعاريتين، تقربان بصورة حسية الطريقة التي على المسلم أن يتعامل بها مع النفس الأمارة بالسوء، وكيفية التقرب من الله بالطاعة والابتعاد عن المعصية.

وفي أسلوب جديد يسبك من خلاله الحجّاج المقابلة بالأسلوب انشائي: "اللهم أرني الغيَّ غيًّا فأجتنبه، وأرني الهدى هدًى فأتبعه"[2]، حيث زاوج الحجّاج بين المقابلة والدعاء، فهو يضع صورتين متقابلتين، إحداهما بها النجاة، والأخرى بها الهلاك، فيطلب من الله التوفيق لاجتناب الغي، واتباع الهدى.

"إنّ الله كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء؛ فلا بقاء لما كُتب عليه الفناء، ولا فناء لما كُتب عليه البقاء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا، عن غائب الآخرة، واقهرُوا طول الأمل، بقصر الأجل"[3]. فقد أقام الحجّاج خطبته هذه على الطباق والمقابلة، حيث وضح بهما حقائق، وبيّن مصائر الأمور ومنتهاها كالمقابلة بين (الدنيا الفناء/الآخرة البقاء) والتي جاءت بعد التوكيد بـ(إنَّ) للدلالة على حتميتها، وأكد من خلال الطباق بين (بقاء/فناء) وتكراره معكوسًا حتمية القضاء والقدر في البقاء والفناء.

ويختم الخطبة بمقابلتين الأولى مسبوقة بنهي (فلا يغرنكم شاهد الدنيا، عن غائب الآخرة) يحذرهم من الغفلة عن الحياة الآخرة لغيابها عن ناظريهم، والثانية مسبوقة بأمر (واقهرُوا طول الأمل، بقصر الأجل) وهما مشروعان متناقضان، والعلاج أن يقهر دنياه بهادم الذات ليبقى مستعدًا للموت.

بعد تناول الطباق والمقابلة في خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي يتضح أنَّ أسلوبه في توظيفهما كان على قدر من النباهة، ووضع للأمور في نصابها الصحيح؛ فالحجّاج وظف كلا الأسلوبين لتوضيح الصور المتناقضة، ثم ليقارن الناس بينهما من خلال تصويرهما بمشاهد حسية. وأخيرًا الاختيار بين إحدى الصورتين إن كان بينهما تفاضل.

---

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\288).

(2) المرجع السابق ج2\289.

(3) المرجع نفسه ج2\289.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان الطباق والمقابلة أحد أدوات الخطبة في التأثير والإقناع، وإقامة الحجة على الخصوم، وحتى للانتصار لشخص الحجّاج، وقد كانا أسلوبي ترهيب يوجه الحجّاج من خلالهما خصومه للرضوخ لأمره.

جاء الطباق والمقابلة في الخطب مسبوقين بالأسلوب الإنشائي، فسبقت بالتوكيد، والدعاء، والاستفهام والأمر والنهي، كما قابل بين استعارتين.

ولم يلحظ على أسلوب الحجّاج في توظيف الطباق والمقابلة أي تكلف وتصنع، بل حملت صوره أفكارًا سهلة سمحة يلتقطها العامة والخاصة فإنَّ "هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف، وبرئ من العيوب، كان في غاية الحسن، ونهاية الجودة"[1]، ونحسب أنَّ الفصاحة والبيان جزء من شخصية الحجّاج الخطيب العربي، الذي كانت الخطبة السلاح الأول في تحريك الجيوش وإنفاذ سياسة الدولة الأموية.

السَّجْع

يعد السجع أداة رئيسة من أدوات المبدع في "صناعة تأليف الألفاظ"، ويعرفه ابن الأثير في "المثل السائر" بأنَّه: "تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد"، ويخصه بالكلام المنثور[2]، مثل: الخطب؛ كذلك انتصر للسجع وجعله أعلى درجات الكلام مستدلاً بكثرة وجوده في آيات القرآن الكريم[3].

والحجّاج بن يوسف الثقفي أحد خطباء العرب الفصحاء الذين لا تكاد تخلو خطبه من هذا اللون البديعي، والمتأمل لخطب الحجّاج يرى في أسجاعه عذوبة ناجمة عن بساطة في اجتلاب الألفاظ، والإمام عبدالقاهر الجرجاني يرى أنَّ السجع حتى يكون حسنًا ومقبولاً؛ لا بد وأن "يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وسَاق نحوَه، وحتى تَجِده لا تبتغي به بدَلاً، ولا تجِد عنه حِوَلاً"[4]، والحجّاج أحسن في انتقاء الألفاظ التي أدت دورًا موسيقيًا ومعنويًا داخل النص.

ومن خطبه التي شكل السجع فيها أحد الأشكال اللفظية، خطبته في أهل العراق يتوعدهم ويهددهم: "أيها الناس: من أعياه داؤه، فعندي دواؤه، ومن استطال أجله، فعليَّ

(1) العسكري، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر (ص294).
(2) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (ج1\195).
(3) انظر: المرجع السابق ج1\195.
(4) الجرجاني، أسرار البلاغة (ج11).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أن أُعَجِّلَه، ومن ثقُل عليه رأسه، وضعتُ عنه ثِقْلَه، ومن استطالَ ماضِيَ عُمرِه، قَصَّرتُ عليه باقيه، إنَّ للشيطان طَيْفًا، وللسلطان سَيْفًا، فمن سقُمتْ سريرتُهُ، صحّت عقوبتُه، ومن وضعَه ذنبُه، رفعَه صلبُه، ومن لم تسعْهُ العافية، لم تضقْ عنه الهلكةُ، ومن سبقته بادرة فمه، سبق بدنه بسفك دمه، إنِّي أُنذرُ ثم لا أُنْظِر، وأحذِّر ثم لا أعذِر، وأتوعد ثم لا أعفو؛ إنَّما أفسدكم تَرنيقُ ولاتكم، ومن استرخى لَبَبهُ، ساء أدبُه، إن الحزم والعزم سلباني سَوْطي، وأبدلاني به سيفي، فقائِمه في يدي، ونجادُه في عُنُقي، وذُبابُهُ قلادةٌ لمن عصاني، والله لا آمُرُ أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد، فيخرج من الباب الذي يليه، إلا ضربت عنقه"[1].

إذا ابتدأنا الحديث عن طول فقرات السجع في الخطبة؛ فإنَّنا نجد أكثرها تألفت من لفظتين، وهذا نادرٌ وقوعه في اللغة، لذلك اعتبره علماء البلاغة دليل براعة المبدع؛ ويُسَميه ابن الأثير "السجع القصير"، وهو "أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلَّفة من ألفاظ قليلة، وكلما قلّت الألفاظ كان أحسن، لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع، وهذا الضرب أوعر السجع مذهبًا، وأبعده متناولًا، ولا يكاد استعماله يقع إلّا نادرًا"[2].

يمكن القول أنَّ سجع هذه الخطبة كان في حرفين رئيسين وهما الهاء والياء لكثرة تكرارهما في الخطبة، ومرة واحدة مع الفاء وألف الاطلاق في "إنَّ للشيطان طَيْفًا، وللسلطان سَيْفًا"، ومرة واحدة مع حرف الراء "إنِّي أُنذرُ ثم لا أُنْظِر، وأحذِّر ثم لا أعذِر"؛ والحجّاج جعل من حروف السجع سمة للجهة المخاطبة، فالفواصل المسجوعة بالهاء كلها أينما وجدت في الخطبة موجهة لأهل العراق، وهي في الفواصل التي اشتعلت بالتهديد والوعيد، وسمح حرف الهاء أن تنتشر عبارات الحجّاج بين السامعين بطبيعته الرخوة التي تستغرق زمنًا أطول نسبيًا من غيره؛ والفواصل المسجوعة بحرف الياء تتجلى فيها الأنا الحجّاجية، ففي هذه الفواصل تحدث الحجّاج عن نفسه، وعن القوة التي يمتلكها، والكيفية التي تحصلت له.

وبالسجع يتحقق للخطبة ضبط إيقاعي له تأثيره على السامعين، فالنفس تطرب لوقع الموسيقى وتنجذب إليه، وتتمثل بما يقال، "ألا ترى أنَّ المَثَلَ إذا كان مسجوعًا لذَّ لسامِعِه فَحَفِظَهُ، فإذا هو حفظه كان جديرًا باستعماله، ولو لم يكن مسجوعًا لم تأنس

(1) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2\278).
(2) ابن الأثير، المثل السائر (ج1\235).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النفس به، ولا أنِقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له، وجيء به من أجله"[1]، والحجّاج كأميرٍ لا يُلقي كلماته التي يسوس بها الرعية لتلقى حتفها عند السامعين دون تحقيق نتيجة، بل لتحيى هذه الكلمات في وجدانهم، وتعمل بمقتضاها جوارحهم.

وفصل الحجّاج –بالخطبة السابقة– بين الفواصل المسجوعة بالهاء والياء بأربع فواصل مختلفة في حركة رويها، فبعد ثماني فقرات مسجوعة بالهاء خرج بفقرتين ينتهي رويهما بالفاء والألف، ويستأنف بثماني فقرات أُخر مسجوعة بالهاء، ثم يخرج بفقرتين ينتهي رويهما بحرف الراء، ثمّ يكمل بفقرتين غير مسجوعتين، وينتهي إلى الفقرات المسجوعة بالياء بفقرتين رويهما الهاء؛ والسجع بالياء وقع في خمس فواصل، وختم الخطبة بفقرتين رويهما الهاء.

وعملت الفقرات ذات السجع المختلف في النص على التنويع في السلم الموسيقي، الذي من شأنه دفع الرتابة عن الخطبة، وجذب الأذهان قبل شرودها، ومما زاد الخطبة حسنًا هو وقوع السجع في فصول قصيرة متساوية في عدد كلماتها، وهذا الشكل "أشرف السجع منزلة؛ للاعتدال الذي فيه"[2]، وهذه الميزة تجعل من الخطبة أسرع حفظًا، وأسرع تداولاً وأسهل على اللسان، وأجرى في الكلام، وكلها مزايا أسلوبية، للسَجْع أحسن استثمارها الحجّاج.

(1) ابن جني، الخصائص (ج216/1).

(2) ابن الأثير، المثل السائر (ج234\1).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخاتمة

اعتمد العرب قبل الإسلام وبعده، على الخطابة في أمورهم العظيمة، ومناسباتهم كافة، وعولوا عليها لتحقيق مآربهم بحد الكلمات، فاهتموا بأدق تفاصيل أدائها لتقع في النفوس موقع التأثير، وكان لأمير العراقين الحجّاج بن يوسف الثقفي ذوقه الخاص بهذا الشأن، فأسلوبه في الخطب، التي زخرفها بأساليب اللغة كافة، أنجز له غاياته، قبل أن يشهر سيفه.

ولذلك كانت الأسلوبية منهجًا كاشفًا لأسرار نجاح الحجّاج، وتذوق أسلوبه الخاص، وفضح الحيلة الحجّاجية في المراوغة بالكلمة، وبناءً على هذه الدراسة –خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي دراسة أسلوبية– خرجت بمجموعة من النتائج.

النتائج

- تأثير الحياة البدوية والبيئة العربية الأصيلة على شخصية الحجّاج فصقلته فكان أهلاً لحكم بلاد العراق في ذلك الوقت، ذات التعددية الطائفية، والمختلفة سياسياً مع الشام، وهو ما لم ينجح به غيره.
- تكشف الأسلوبية عن الكيفية التي يقال بها الكلام، وعن العلاقات المترابطة بين النص وكل من المبدع، والجو الذي يعيشه، والمتلقي، مع التأكيد على أهمية البلاغة التي تكتفي بدراسة حال النص.
- يحقق الخطيب نجاحًا صوتيًا إذا وائم بين النمط الصوتي لحروف الخطبة ونظام مقاطعها مع طبيعة موضوعها.
- لا يمكن وضع قاعدة مطردة للنظام المقطعي في خطب الحجّاج، حيث من الممكن أنْ تتوافق إحصاءات النظام المقطعي لنصيْن مختلفيْن دون أنْ تتشابه الدلالات.
- موضوع الخطبة أو النص والجو الذي تقال فيه هو الذي يرجح الدلالة الصوتية.
- اتكأ أمير العراقيْن في ألفاظ خطبه على الأصوات التي ترتفع فيها نسبة الوضوح السمعي، وهذا يتناسب مع نهج الحجّاج الواضح، والذي جهر به بملء فِيه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- خطب الحجّاج متكيفة مع العادات الصوتية عند العرب، فأكثر حروفهم تكرارًا المجهورة، وأكثر المقاطع الصوتية التي بُنيت منها كلماته هي الأكثر انتشارًا في اللغة.
- غلبت الصورة الاسمية في الخطب، فكانت أبنية الأسماء أكثر من الأفعال، وربما تتوافق هذه الغلبة مع طبيعة الخطب، فكان الجنوح للأسماء أكثر، والأفعال المستعملة غالبًا للخطاب الموجه للعراقيين، ليصور تفاعله والعراقيين مع الفتن.
- توظيف أبنية الأسماء جاء موافقًا لمعتقدات الحجّاج عن رعيته من أهل العراق وأهل الشام، لِما تحمله هذه الأبنية من الدلالة على الثبوت والاستقرار.
- يمكن أنْ يحقق الأمير ما يأمله من رعيته دون اللجوء لأبنية فعل الأمر في خطبه، حيث يمكن الاستعاضة عنها بالتهديد والوعيد من أشياء يريدها أو لا يريدها الأمير.
- تشكل معجم الحجّاج وفقًا لمحددات عديدة، منها: الشخصية والمستوى العقلي، والبيئة المانحة لألفاظ الموجودات فيها، وطبيعة الموضوع المطروق.
- الأساليب البلاغية جعلت الخطبة القصيرة تبدو أكبر مما هي عليه، حيث قوّى الحجّاج خطبه بأساليب التشبيه، ودفع عن خطبه التطويل بلا فائدة والإيجاز المخل من خلال أساليب المجاز.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المصادر والمراجع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المصادر المراجع

- **القرآن الكريم** –رواية حفص عن عاصم–.

إبراهيم، عادل عبدالرحمن عبدالله. (2006م). *النظام المقطعي ودلالته في سورة البقرة، دراسة صوتية وصفية تحليلية"*، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الإسلامية، غزة.

ابن أبي الإصبع، زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالواحد بن ظافر بن عبدالله ابن محمد المعروف بان أَبي الإصبع المصري. (2012م). *تحرير التحبير*. (د.ط). تحقيق: حنفي محمد شرف، القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي.

ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم. (1995م). *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*. (د.ط). تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد، بيروت: المكتبة العصرية.

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي. (1993م). *الرد على المنطقيين*. ط1. لبنان: دار الفكر اللبناني.

ابن جني، أبو الفتح عثمان. (د.ت). *الخصائص*. ط2. تحقيق: محمد علي النجار، لبنان: دار الهدى.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد. (1984م). *مقدمة ابن خلدون*. ط5. بيروت: دار القلم.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي. (1900م). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر.

ابن عبدربه، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي. (1999م،). *العقد الفريد*، تحقيق: بركات يوسف هَبُّود. ط1. لبنان: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبدالله الشافعي. (2001م). *تاريخ مدينة دمشق*. (د.ط). (د.م)، دار الفكر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ابن فارس، أبو الحسين بن فارس بن زكريا. (1994م). *المقاييس في اللغة*، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو. ط1. بيروت: دار الفكر.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. (1987م). *المعارف*. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. (1996م). *البداية والنهاية*. ط1. القاهرة: دار أبي حيان.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (2000م). *لسان العرب*. ط1. بيروت: دار صادر.

أبو العدوس، يوسف. (2010م). *الأسلوبية الرؤية والتطبيق*. (د.ط). عمان: دار المسيرة.

أبو العدوس، يوسف. (2010م). *مدخل إلى البلاغة العربية*. (د.ط). عمان: دار المسيرة.

أبو حميدة، زكي صلاح. (2000م). *الخطاب الشعري عند محمود درويش دراسة أسلوبية*. ط1. غزة: مطبعة مقداد.

أبو زهرة، محمد. (1934م). *الخطابة أصولها_تاريخها في أزهر عصورها عند العرب*. ط1. القاهرة: دار الفكر العربي.

أبو علي، نبيل خالد رباح. (د.ت). *نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ*. (د.ط). مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أبو ندى، وليد. (2013م). *طبقات النص*. مجلة الجامعة الإسلامية–المدينة المنورة، بحث مقبول للنشر.

أحمد الهاشمي. (د.ت). *جواهر البلاغة*. ط2. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

أحمد، محمد عبدالقادر. (1986م). *دراسات في أدب ونصوص العصرين الأموي*. ط1. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

ارسطوطاليس.(د.ت). *الخطابة*. (د.ط). تحقيق: عبدالرحمن بدوي، الكويت: وكالة المطبوعات، بيروت: دار القلم.

الأصفهاني، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي. (2003م). *شرح ديوان الحماسة*. ط3. تحقيق: غريد الشيخ، بيروت: دار الكتب العلمية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمين، أحمد. (1979م). *ضحى الإسلام*. (د.ط). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

أمين، أحمد. (1982م). *فجر الإسلام*. ط13. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

أمين، سامر محي الدين. (2011م). *الحجّاج بن يوسف الثقفي: حياته، أخباره*. ط1. عمان: دار المستقبل للنشر والتوزيع.

أنيس، إبراهيم. (د.ت). *الأصوات اللغوية*. (د.ط). القاهرة: مكتبة نهضة مصر.

أنيس، إبراهيم، وآخرون –مجمع اللغة العربية–. (د.ت). *المعجم الوسيط*. ط2. القاهرة: مجمع اللغة العربية.

بلخيري، فطيمة. (2015م). *البيان في خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي*، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة محمد خيضر، الجزائر، تاريخ الاطلاع: 4 يناير 2017م، .

الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، أبو عثمان. (د.ت). *البيان والتبيين*. (د.ط). تحقيق: فوزي عطوي، بيروت: دار صعب.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي. (د.ت). *أسرار البلاغة*، القاهرة: مطبعة المدني، جدة، دار المدني.

الجرجاني، علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي. (2007م). *التعريفات*. ط1. تحقيق: نصر الدين تونسي، القاهرة: شركة القدس للتصدير.

الحملاوي، أحمد. (د.ت) *شذا العرف في فن الصرف*. (د.ط). القاهرة: دار الأرقم بن أبي الأرقم.

الحديثي، خديجة. (1965م). *أبنية الصرف في كتاب سيبويه*. ط1. بغداد: مكتبة النهضة، بغداد.

الحسن، عيسى. (2009م). *الدولة الأموية عوامل البناء وأسباب الانهيار*. ط1. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. (1990م). معجم *البلدان*. ط1. تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، بيروت: دار الكتب العلمية.

خليف، يوسف. (1968م). *حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة*. (د.ط). القاهرة: دار الكاتب العربي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خليل، إبراهيم. (2002م). *في النقد والنقد الألسني*. (د.ط). عمان: أمانة عمان الكبرى.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. (1993م). *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري. ط2. لبنان: دار الكتاب العربي.

الرازي، الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين. (2004م). *نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز*. ط1. بيروت: دار صادر.

الرماني، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن. (1976م). *النكت في إعجاز القرآن*. ط3. تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف.

الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجّاجي. (1987م). *الأمالي*. ط2. تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل.

الزركشي، بدرالدين محمد بن عبدالله. (1980م). *البرهان في علوم القرآن*. ط3. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.م)، دار الفكر.

الزركلي، خيرالدين. (1980م). *الأعلام*. ط5. بيروت: دار العلم للملايين.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. (1998م). *أساس البلاغة*. ط1. دار لبنان: الكتب العلمية.

زيادة، محمود. (2008م). *الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه*. ط6. (د.م)، دار السلام.

السامرائي، فاضل صالح. (2007م). *معاني الأبنية في العربية*. ط2. عمان: دار عمار.

السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي. (2000م). *مفتاح العلوم*. ط1. تحقيق: د.عبدالحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. (د.ت). *الكتاب*، تحقيق: عبدالسلام هارون. (د.ط). بيروت: عالم الكتب.

شاهين، عبدالصبور. (1980م). *المنهج الصوتي للبنية العربية*. (د.ط). بيروت: مؤسسة الرسالة.

الصعيدي، عبدالمتعال. (1991م). *البلاغة العالية-علم المعاني*. ط2. القاهرة: مكتبة الآداب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صفوت، أحمد زكي. (1933م). *جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة*. ط1. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي.

الصَّلاَّبي، علي محمد محمد. (2006م). *خلافة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه*. ط1. القاهرة: مؤسسة اقرأ.

الصَّلاَّبي، عَلي محمد محمد. (2008م). *الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار*. ط2. بيروت: دار المعرفة.

الضالع، محمد صالح. (2002م). *الأسلوبية الصوتية*. (د.ط). القاهرة: دار غريب.

ضيف، شوقي. (د.ت). *التطور والتجديد في الشعر الأموي*. ط6. القاهرة: دار المعارف.

ضيف، شوقي. (د.ت). *الفن ومذاهبه في النثر العربي*. ط5. القاهرة: دار المعارف.

طه، عبدالوحد ذنون. (2005م). *العراق في عهد الحجّاج بن يوسف الثقفي*. ط2. بيروت: الدار العربية للموسوعات.

عبدالجليل، عبدالقادر. (د.ت). *الأصوات اللغوية*. (د.ط). (د.م)، دار صفا.

عبداللطيف، محمد حماسة. (1990م). *الجملة في الشعر العربي*. ط1. القاهرة: مكتبة الخانجي.

عتيق، عبدالعزيز. (1982م). *علم البيان*. (د.ط). لبنان: دار النهضة العربية.

عجولي، أروى خالد مصطفى. (2014م). النظام الصوتي ودلالته في سيفيات المتنبي وكافورياته، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن السهل. (1984م). *كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر*، تحقيق: مفيد قميحة. ط2. لبنان: دار الكتب العلمية.

العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم. (1980م). *الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز*. (د.ط). لبنان: دار الكتب العلمية.

الفاخوري، حنا. (1986م). *الجامع في تاريخ الأدب العربي*. ط1. لبنان: دار الجيل.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (1988م). *كتاب العين*، تحقيق: مهدي المخزومي، و إبراهيم السامرائي. ط1. لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قاسم، عدنان حسين. (1988م). *التصوير الشعري: رؤية نقدية لبلاغتنا العربية*. ط1. الكويت: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع.

قبها، مهدي عناد أحمد. (2011م). *التحليل الصوتيّ للنصّ*، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنيّة– فلسطين.

القحطاني، عبد الرحمن بن سعيد بن علي بن وهف. (د.ت). *أبراج الزجاج في سيرة الحجّاج*، تحقيق: سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الرياض: مطبعة سفير.

القزويني، الخطيب (2004م). *الإيضاح في علوم البلاغة*، تحقيق: غريد الشيخ محمد، وإيمان الشيخ محمد. ط1. لبنان: دار الكتاب العربي.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي. (د.ت). *صبح الأعشى*. (د.ط). القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي.

القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق. (1996م). *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*. ط1. لبنان: دار ومكتبة الهلال.

مبروك، مراد عبدالرحمن. (1993م). *من الصوت إلى النص*. (د.ط). (د.م)، عالم الكتب.

محفوظ، علي. (د.ت). *فن الخطابة واعداد الخطيب*. (د.ط). القاهرة: دار الاعتصام.

المَدَريْ، أمير بن محمد. (د.ت). *الحجّاج بن يوسف الثقفي مواقف من حياته (دماء وعطاء)*، (د.ن).

المري، عبدالله جابر. (2012م). *الخطابة عند الفاروق دراسة أسلوبية*، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الشرق الأوسط.

مطلوب، أحمد. (1980م). *أساليب بلاغية*. (د.ط). الكويت: وكالة المطبوعات.

معلوف، سمير أحمد. (2000م). *حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز: دراسة في المجاز الأسلوبي واللغوي*، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

منّاع، هاشم. (1993م). *النثر في العصر الجاهلي*. ط1. بيروت: دار الفكر العربي.

بن ثابت، حسان. (2002م). *ديوان حسان بن ثابت*. تحقيق: عبدأ علي مَهنّا (د.ط). بيروت: دار الكتب العلمية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النابغة. (1984م). *ديوان النابغة الذبياني*. ط1. شرحه: عباس عبدالسَّتار، لبنان: دار الكتب العلمية.

نور الدين، عصام. (1997م). *أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب* بيروت: دار الفكر اللبناني.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري. (د.ت). *نهاية الأرب في فنون الأدب*. (د.ط). القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي.

هادف، بوزيد ساسي. (2009م). *الدلالة الصوتية عند ابن جني من خلال كتابه الخصائص*. حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 9.

الهاشمي، أحمد. (د.ت). *جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع*. ط2. لبنان: دار إحياء التراث العربي.

الهمص، سامي حماد. (2007م). *شعر بشر بن أبي خازم دراسة أسلوبية*، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر–غزة.

الوطواط، ابواسحاق برهان الدين الكتبي. (د.ت). *غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة*. (د.ط). بيروت: دار صعب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com